2me Année, No. 68.

Lundi-22-10-1934

بدل الاشتراك عن سنة

م

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع الساحة رقم ٣٩

بالقاهرة

تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

العـدد ٦٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ رجب سنة ١٣٥٣ — ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـدد

فى سبيل التحرير الاقتصادى

موسم السياحة

أقبل موسم السياحة . ولمصر موسم للسياحة مشهور فى جميع أنحاء العالم ، لا لأنها أغنى بقاع الأرض من الناحية الأثرية فقط ، ولكن لأنها تتمتع أيضاً فى الشتاء بجو بديع وطبيعة ساحرة . وفى جميع الأمم التى تشتهر بتراثها الأثرى أو جمالها الطبيعى ، يوجد موسم أو مواسم للسياحة ؛ وتنظم هذه المواسم بحيث تغدو موارد ينتفع بها أهل القطر من الناحية المادية ؛ بل توجد أمم وبقاع تعيش على السياحة كسويسرا مثلاً وبلاد التيرول ، وساحل الريفييرا والبندقية وغيرها . وتعتبر السياحة فى مصر أيضاً مورداً له قيمته وأهميته ، وتبذل الحكومة لترويجه كثيراً من المال ومن وسائل الدعاية ؛ ولكن هل استطاعت مصر أن تنظم موسم سياحتها على نحو يكفل مصالحها ومصالح أبنائها الذين يتصلون به كما تفعل جميع الأمم ؟ وهل تجنى مصر ويجنى المصريون منه ما يحق لهم أن يجتنوه من المزايا المادية والمعنوية ؟ الجواب معروف ، وهو أن مغانم موسم السياحة المصرى مازالت نهباً للأجانب ، يستغلونها باسم مصر والمصريين ، ولكن دون مصر والمصريين ؛ وما تفيده

الحكومة من أجور السكك الحديدية وتذاكر الآثار ، وما يفيده بعض المصريين المتصلين بالموسم لا يعد شيئاً بالنسبة لما تحققه الفنادق ووكالات السياحة الأجنبية من الأرباح الوفيرة .

هذه حقيقة لاريب فيها ، ولكن هناك حقيقة أخرى هى أن تبعة هذه النتيجة المؤلمة تقع على عاتق مصر حكومة وشعباً . فالحكومة لم تفعل حتى اليوم شيئاً جدياً لتنظيم موسم السياحة على نحو تراعى فيه المصالح المصرية ، ويوضع فيه حد معقول للاستغلال الأجنبى ؛ والمصريون من جانبهم لا يفكرون فى العمل على استثمار هذا الموسم الذى تهيئه لبلادهم مزاياها الأثرية والطبيعية . فمن المعروف مثلاً أن الفنادق تستأثر بأهم موارد الموسم ، وأن هذه الفنادق كلها أجنبية ؛ ولكن هل فكرنا نحن فى إنشاء فنادق يستطيع أن يؤمها السياح ؟ إن إنشاء الفنادق صناعة لها قيمتها وأهميتها ولا سيما فى مراكز السياحة المشهورة ؛ ففى سويسرا مثلاً تعتبر صناعة الفنادق من أهم الموارد القومية ، وقد عرف الأجانب فى مصر هذه الحقيقة فعنوا بانشاء الفنادق واحتكروا صناعتها ، ولكن المعروف أنهم يذهبون فى استغلالها إلى حدود مرهقة ، حتى أن كثيراً من السياح الذين يفدون على مصر يضجون بالشكوى من غلاء الأجور والأثمان التى تفرض عليهم . وهذا بلا ريب عيب فى موسم السياحة المصرى له أثره السىء فى سير الموسم ، وهو بلا ريب يصرف الكثيرين من متوسطى الحال عن القدوم إلى مصر والتمتع بآثارها وشتائها .

ونذكر أن الحكومة قدرت خطر هذه المسألة منذ أعوام ، وفكرت فعلا فى إنشاء فندق كبير فخم يقتضى من السياح أجوراً معتدلة ، ولكن الفكرة ماتت فى مهدها ككل فكرة يخشى منها على المصالح الأجنبية فى مصر . وإذاً فليس لنا إلا أن نعتمد على الجهود الخاصة فى غزو هذه الصناعة التى يحتكرها الأجانب فى بلادنا ، ويجنون منها الثروات الطائلة ، وهى صناعة لا تقتضى فنوناً أو مواهب خارقة ، ولا تقتضى سوى الاقدام وموهبة التنظيم وحسن الذوق ؛ وهى ليست أجل خطراً من الشئون المالية الدقيقة التى استطعنا أن نغزوها وأن نبرع فيها على يد بنك مصر وشركاته القوية الميمونة ، ولقد أتيح لهذه المؤسسة القومية العتيدة أن تبدأ بالفعل بغزو ميدان له صلة وثيقة بالسياحة وموسمها ؛ فقد أنشأت شركة للمواصلات الجوية وأسطولاً جوياً يقوم اليوم بنصيبه فى المواصلات المحلية ؛ وأنشأت شركة للملاحة لها اليوم أسطول بحرى لا يزال فى مستهل حياته ، ولكنه يشق اليوم عباب البحر الأبيض ، ويربط مصر بالقارة الأوربية ؛ ولذا كنا ننبه اليوم على تقصيرنا فى العمل على استثمار موسم سياحتنا والأخذ بنصيبنا فى صناعة الفنادق المحلية ، فانما نتجه فى تلافى هذا التقصير بادىء بدء الى بنك مصر أيضاً ، والى تلك العصبة الميمونة من زعمائنا الاقتصاديين الذين أتوا فى الميدان الاقتصادى بالعجائب ، فهم أحق الناس بأن يتولوا الزعامة فى هذه الناحية أيضاً ، فينشئوا لنا شركة مصرية حقيقية تقوم بانشاء بضعة فنادق فخمة تشترك فى استثمار موسم السياحة لحساب المصالح المصرية ، وتفتح بذلك باب هذه الصناعة واسعاً أمام المصريين ، فيقتدون بها فى الاقدام والعمل ؛ ولا ريب أن صناعة فنادق مصرية إذا أقيمت على أسس مستنيرة تلقى نصيبها الأوفر من النجاح ، نظراً لقناعتها واعتدالها .

هذا وفى وسع المصريين أن يحققوا بغزو هذه الصناعة ، فضلاً عن الأرباح المادية لبلادهم ، مزايا أدبية جليلة عن طريق الاتصال بموسم السياحة ؛ فالسياح من مختلف الأمم ، لا يتصلون عند مقدمهم الى هذه البلاد بكثير من المصريين المستنيرين ، إذ يتلقفهم الأجانب والفنادق الأجنبية ، ويأخذون معظم معلوماتهم عن مصر من الأجانب ؛ وليست هذه المعلومات دائماً دقيقة ولا نزيهة . فاذا أتيح للمصريين أن يتصلوا بطبقات السياح عن غزو ميدان السياحة ، فانهم يستطيعون أن يقدموا لضيوفهم عن بلادهم كل المعلومات المطلوبة ، وأن يذيعوا بذلك مآثرها ومحاسنها بين السياح من مختلف الأمم ، فيكون لها بذلك حسن الذكرى فى كثير من البلاد .

هذه كلمة أوحى بها الينا إقبال موسم السياحة الذى يتجدد كل عام فى مثل هذا الفصل ؛ والذى ما يزال الأجانب يستأثرون بمغانمه باسم مصر ؛ نرجو أن يكون لها بعض الصدى والأثر .

«ع»

قبح جميل

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

دخل أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة ، فصنع له مسلمُ بن عمران التاجر المتأدب صنيعاً دعا إليه جماعة من وجوه التجار وأعيان الأدباء ، فجاء ابنا صاحبِ الدعوة ، وهما غلامان ، فوقفا بين يدى أبيهما ، وجعل ابنُ أيمن يُطيل النظرَ إليهما ، ويُعجب من حسنهما وزِيِّهما وروائهما ، حتى كأنما أُفرِغا فى الجمال وزينته إفراغاً ، أو كأنما جاءا من شمس وقمر لا من أبوين من الناس ، أو هما قد نبتا فى مثل تهاويل الزهر من زينته التى تُبدعها الشمس ، ويصقلها الفجر ، ويتندّى بها روحُ الماء العذب . وكان لايصرف نظره عنهما إلا رجع به النظر ، كأن جمالها لاينتهى فما ينتهى الاعجاب به .

وجعل أبوهما يسارقه النظرَ مسارقة ، ويبدو كالمتشاغل عنه ، لِيَدَع له أن يتوسَّمَ ويتأمل ماشاء ، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتيه ومخايلهما . بَيْدَ أن الحسن الفاتن يأبى دائماً إلا أن يسمع من ناظره كلمةَ الاعجاب به ، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً ، وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً ، وحتى ليحس أنَّ غريزةً فى داخله كلَّمها الحسنُ من كلامه فردَّتْ عليه من كلامها .

قال ابنُ أيمن : سبحان الله ؛ ما رأيت كاليوم قطّ دُمْيَتَيْنِ لاتفتح الأعينُ على أجملَ منهما ؛ ولو نزلا من السماء وألبستهما الملائكةُ ثياباً من الجنة ما حسبْتُ أن تصنع الملائكة أظرفَ ولا أحسن مما صنعت أمهما .

فالتفت إليه مسلم ، وقال أحب أن تعوّذهما . فمد الرجل يده ومسح عليهما ، وعوّذهما بالحديث المأثور ، ودعا لهما ، ثم قال : ما أراك إلا استَجَدْتَ الأمّ تحْسِين نسلك ، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً ، صغارُه من كباره ؛ وما عليك ألاّ تكون قد تزوجت ابنةَ قيصر فأولدتها هذين ، وأخرجتهما هى لك فى صيغتها الملوكية (١) من الحسن والأدب والرونق ، وما أرى مثلهما يكونان فى موضع إلا كان حولهما جلالُ المُلْك ووقاره ، مما يكون حولهما من نور تلك الأم

فقال مسلم : وأنت على ذلك غير مُصدّق إذا قلت لك إنى لا أحب المرأة الجميلة التى تصف ، وليس بى هوى إلا فى امرأة دميمة هى بدمامتها أحبُّ النساء إلىّ ، وأخفُّهن على قلبى ، وأصلحُهن لى ، ما أعدِل بها ابنةَ قيصر ولا ابنة كسرى

فبقى ابنُ أيمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع ، ثم ذكر أن من الناس مَن يأكل الطين ويستطيبه لفسادٍ فى طبعه ، فلا يحلو السُّكّر فى فمه وإن كان مكرّراً خالصَ الحلاوة . وَرَثَى أشدّ الرثاء لأمّ الغلامين أن يكون هذا الرجل الجِلْف قد ضارّها (٢) بتلك الدميمة أو تَسرّى بها عليها . فقال وما يملك نفسه : أما والله لقد كفرتَ النعمة ، وغدرْتَ وجحدْتَ وبالغت فى الضُّر ، وإن أمّ هذين الغلامين لامرأةٌ فوق النساء ، إذ لم يَتَبَيَّنْ فى ولديها أثرٌ من تغيُّر طبعها وكدر نفسها ، وقد كان يسعها العذر لو جعلتْهما سَخْنَةَ عينٍ لك ، وأخرجتْهما للناس فى مساوئك لا فى محاسنك ، وما أدرى كيف لا تَندُّ عليك ولا كيف صَلُحَتْ بمقدار ما فسدْتَ أنت ، واستقامت بمقدار ما التويْت ، وعجيبٌ والله شأ نكما ! إنها لتغلو فى كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق ، كما تغلو أنت فى البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة .

قال مسلم : فهو والله ما قلتُ لك ، وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبتْ بى كلّ مذهب ، وأنستْنى كل جميلة فى النساء ، ولئن أخذت أصفها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القبح والشَّوَهِ والدّمامة ؛ غير أنها مع ذلك لاتجىء إلا دالّةً على أجمل معانى المرأة عند رَجلها فى الحظوة والرضى وجمال الطبع . وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة فى القبح هى زيادة فى الحسن وزيادة فى الحب ، وكيف يكون اللفظ الشائه ، وما فيه لنفسى إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسُّ الصادق بهذا المعنى ، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحسّ ؟

(١) تجىء هذه الكلمة فى كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب وهو الافصح فى رأينا ، ومن ذلك تسمية الامام ابن جنى كتابه « التصريف الملوكى »

(٢) المضارة اتخاذ الضرة على الزوجة .

قال ابن أيمن : والله إن أراك إلا شيطاناً من الشياطين ، وقد عجّل الله لك من هذه الدميمة زوجتك التى كانت لك فى الجحيم ، لتجتمعا معاً على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أمّ هذين الصغيرين ، وما أدرى كيف يتصل ما بينكما بعد هذا الذى أدخلْتَ من القبح والدمامة فى معاشرتها ومعايشتها ، وبعد أن جعلتها لا تنظر إليك إلا بنظرتها إلى تلك . أ فَبَهِيمَةٌ هى لا تعقل ، أم أنت رجل ساحر ، أم فيك ما ليس فى الناس ، أم أنا لا أفقه شيئاً ؟

فضحك مسلم وقال : إن لى خبراً عجيباً : كنت أنزل « الأُبُلَّة » وأنا مُتعيِّش فحملت منها تجارة إلى البصرة فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر ، حتى كثر مالى ، ثم بدا لى أن أتّسع فى الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها ، وأبسطَ يدى للمال حيث يكثر وحيث يقلّ ، وكنت فى ميْعة الشباب وَغُلَوائه ، وأول هجمة الفتوّة على الدنيا ، وقلت : إن فى ذلك خلالاً ؛ فأرى الأمم فى بلادها ومعايشها ، وأتقلّبُ فى التجارة ، وأجمع المال والطرائف ، وأفيد عظةً وعبرة ، وأعلم علماً جديداً ، ولعلنى أصيب الزوجة التى أشتهيها وأصوّر لها فى نفسى التصاوير ، فإن أمرى من أوله كان إلى عُلُوٍّ فلا أريد إلا الغاية ، ولا أرمى إلا للسَّبْق ، ولا أرضى أن أتخلف فى جماعة الناس . وكأنى لم أر فى الأبلّة ولا فى البصرة امرأة بتلك التصاوير التى فى نفسى ، فتأخذها عينى ، فتعجبنى ، فتصلح لى ، فأتزوج بها . وطمعت أن أستنزل نجماً من تلك الآفاق أُحرزه فى دارى ؛ فما زلت أرمى من بلد إلى بلد حتى دخلت « بلخ » (١) من أجلّ مدن خراسان وأوسعها غلّة ، تحمَلُ غلّتَها إلى جميع خراسان وإلى خوارزْم ؛ وفيها يومئذ كان عالمها وإمامها « أبو عبد الله البلْخى » وكنا نعرف اسمه فى البصرة ؛ إذ كان قد نزلها فى رحلته وأكثر الكتابة بها عن الرّواة والعلماء ؛ فاستخفّتنى إليه نَزِيّةٌ من شوق إلى الوطن ، كأن فيه بلدى وأهلى ؛ فذهبت إلى حلْقته ، وسمعته يفسر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « سوداء ولود خيرٌ من حسناء لا تلد . » فما كان الشيخ إلا فى سحابة ، وما كان كلامه إلا وحياً يوحَى إليه . سمعت والله كلاماً لا عهد لى بمثله ، وأنا من أول نشأتى أجلس إلى العلماء والأدباء وأداخلهم فى فنون من المذاكرة ، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخى ، ولقد حفظته حتى ما تفوتنى لفظة منه ، وبقى هذا الكلام يعمل فى نفسى عمله ، ويدفعنى إلى معانيه دفعاً حتى أتى علىّ ما سأحدثك به . إن الكلمة فى الذهن لتوجد الحادثة فى الدنيا .

قال ابن أيمن : إطْوِ خبرك إن شئت ، ولكن اذكر لى كلام البلخى ، فقد تعلّقتْ نفسى به .

قال سمعتُ أبا عبد الله يقول فى تأويل ذلك الحديث : أما فى لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو من أعجب الأدب وأبرعه ، ما علمت أحداً تنبّه إليه ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم لا يريد السوداء بخصوصها ، ولكن كَنَى بها عما تحت السواد ، وما فوق السواد ، وما هو إلى السواد من الصفات التى يَتَقبَّحُها الرجال فى خلقة النساء وصُوَرهن ؛ فألْطَفَ التعبيرَ ورقّقه به ، رفعاً لشأن النساء أن يصفَ امرأة منهن بالقُبح والدّمامة ، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم ، وتنزيهاً للسانه النبوىّ ؛ كأنه صلى الله عليه وسلم يقول : إن ذِكْرَ قبح المرأة هو فى نفسه قبيح فى الأدب ، فإن المرأة أمّ أو فى سبيل الأمومة ؛ والجنة تحت أقدام الأمهات ؛ فكيف تكون الجنة التى هى أحسن ما يُتَخيَّلُ فى الحسن تحت قدمى امرأة ، ثم يجوز أدباً أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح .

أما إن الحديث كالنصّ على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألاّ يصف امرأة بقبح الصورة ألبتّة ، وألاّ يجرى فى لسانه لفظُ القبح وما فى معناه ، موصوفاً به هذا الجنس الذى منه أمّه : أيَوَدّ أحدُكم أن يمزّق وجهَ أمّه بهذه الكلمة الجارحة ؟ .

وقد كان العرب يُفَصِّلُون لمعانى الدمامة فى النساء ألفاظاً كثيرة ؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية . أما أكمل الخلق صلى الله عليه وسلم ، فما زال يوصّى بالنساء ويرفع شأنهن ، حتى كان آخر ما وصّى به ثلاث كلمات كان يتكلم بهن إلى أن تلجلج لسانه وخفى كلامه ؛ جعل يقول : « الصلاة .. الصلاة . وما ملكت أيمانُكم ، لا تكلّفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء . »

(١) موقعها اليوم فى بلاد الأفغان .

قال الشيخ : كأن المرأة من حيث هي إنما هي صلاة تتعبد بها الفضائل ، فوجبت رعايتها وتلقيها بحقها . وقد ذكرها بعد الرقيق ، لأن الزواج بطبيعته نوع رق ؛ ولكنه ختم بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج في حقيقته نوع عبادة .

قال الشيخ : ولو أن أمًّا كانت دميمة شوهاء في أعين الناس لكانت مع ذلك في عين أطفالها أجمل من ملكة على عرشها ؛ ففي الدنيا من يصفها بالجمال صادقاً في حسه ولفظه ، لم يكذب في أحدهما ، فقد انتفى القبح إذن ، وصار وصفها به في رأى العين تكذيباً لوصفها في رأى النفس ، ولا أقل من أن يكون الوصفان قد تعارضا فلا جمال ولا دمامة .

قال الشيخ : وأما في معنى الحديث ، فهو صلى الله عليه وسلم يقرّر للناس أن كرم المرأة بأمومتها ، فاذا قيل : إن في صورتها قبحاً فالحسناء التي لا تلد أقبح منها في المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبح الذي يقال إن الحسن أقبح منه . . . !

فمن أين تناولت الحديث رأيته دائراً على تقدير أن لا قبح في صورة المرأة ، وأنها منزّهة في لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف ، فان كلمات القبح والحسن لغة بهيمية تجعل حب المرأة حبا على طريقة البهائم ، من حيث تفضلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه في غرائزه وشهواته لا يتكذب في الغريزة ولا في الشهوة بتلوينهما ألواناً من خياله ، ووضعهما مرة فوق الحد ، ومرة دون الحد .

فأكبر الشأن هو للمرأة التي تجعل الانسان كبيراً في إنسانيته ، لا التي تجعله كبيراً في حيوانيته ، فلو كانت هذه الثانية هي التي يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهي القبيحة لا الجميلة ، إذ يجب على المؤمن الصحيح الايمان أن يعيش فيما يصلح به الناس ، لا فيما يصطلح عليه الناس ؛ فان الخروج من الحدود الضيقة للألفاظ الى الحقائق الشاملة هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدي الى نعيم الآخرة وثوابها .

وهناك ذاتان لكل مؤمن : إحداهما غائبة عنه ، والأخرى حاضرة فيه ، وهو إنما يصل من هذه الى تلك ، فلا ينبغي أن يحصر السماوية الواسعة في هذه الترابية الضيقة . والقبح إنما هو لفظ ترابي يشار به الى صورة وقع فيها من التشويه مثل معاني التراب . والصورة فانية زائلة ، ولكن عملها باق ؛ فالنظر يجب أن يكون الى العمل . فالعمل هو لا غيره الذي تتعاوره ألفاظ الحسن والقبح .

وبهذا الكمال في النفس ، وهذا الأدب ، قد ينظر الرجل الفاضل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة ، لا الى الشوهاء ، ولكن الى الحور العين . إنهما في رأى العين رجل وامرأة في صورتين متنافرتين جمالاً وقبحاً ؛ أما في الحقيقة والعمل وكمال الايمان الروحي فهما إرادتان متحدتان تجذب إحداهما الأخرى جاذبية عشق ، وتلتقيان معاً في النفسين الواسعتين ، المراد بهما الفضيلة وثواب الله والانسانية ؛ ولذلك اختار الامام أحمد بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعقلهما ؟ . فقيل : العوراء . فقال : زوجوني إياها . فكانت العوراء في رأى الامام وإرادته هي ذات العينين الكحيلتين ، لوفور عقله وكمال إيمانه .

قال أبو عبد الله : والحديث الشريف بعد كل هذا الذي حكيناه يدل على أن الحب متى كان إنسانياً جارياً على قواعد الانسانية العامة ، متسعاً لها غير محصور في الخصوص منها — كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس ، واستطاع الانسان أن يجعل حبه يتناول الأشياء المختلفة ، ويرد على نفسه من لذاتها ، فان لم يسعده شيء بخصوصه ، وجد أشياء كثيرة تسعده بين السماء والأرض ، وإن وقع في صورة امرأته ما لا يعد جمالاً ، رأى الجمال في أشياء منها غير الصورة ، وتعرف إلى ما لا يخفى ، فظهر له ما يخفى .

وليست العين وحدها هي التي تؤامر في أي الشيئين أجمل ، بل هناك العقل والقلب ، فجواب العين وحدها ، إنما هو ثلث الحق . ومتى قيل « ثلث الحق » فضياع الثلثين يجعله في الأقل حقًّا غير كامل .

فما نكرهه من وجه ، قد يكون هو الذي نحبه من وجه آخر ، إذا نحن تركنا الارادة السليمة تعمل عملها الانساني بالعقل والقلب ، وبأوسع النظرين دون أضيقهما « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا . »

***

فوثب ابن أيمن ، وأقبل يدور في المجلس مما دخله من طرب الحديث ويقول : ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يا ابن عمران . قال مسلم : فكيف بك لو سمعته من أبي عبد الله ؛ إنه والله قد حبب إلى السوداء والقبيحة والدميمة ، ونظرت لنفسي

بخير النظرين ، وقلتُ : إن تزوّجتُ يوماً فما أبالى جمالاً ولا قبحاً ، إنما أريدُ إنسانيّة كاملة منى ومنها ومن أولادنا ، والمرأةُ فى كل امرأة ، ولـكن ليس العقل فى كل امرأة .

قال : ثم إنى رجعتُ إلى البصرة ، وآثرتُ السكنى بها ، وتعالَمَ الناس إقبالى ، وعلمتُ أنه لا يحسُنُ بى المُقام بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلُّ قدراً من جدّ هذين الغلامين . وكانت له بنت قد عضَلها وتعرّضَ بذلك لعداوة خُطّابها ، فقلت : ما لهذه البنت بدٌّ من شأنٍ ، ولو لم تكن أكملَ النساء وأجملَهن ، ما ضنّ بها أبوها رجاوةَ أن يأتيه من هو أعلى ، فحدّثتنى نفسى بلقائه فيها ، فجئتُه على خلوة ...

فقطع عليه ابنُ أيمن وقال : قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين ، وإنما نريدُ من خبر تلك الدميمة التى تعشّقتها

قال : مهلاً فستنتهى القصةُ إليها . ثم إنى قلت : ياعمّ ، أنا فلان بن فلان التاجر . قال : ما خفى عنى محلُّك ومحلُّ أبيك . فقلت : جئتُك خاطباً لابنتك . قال : والله ما بى عنك رغبة ، ولقد خطبها إلىّ جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم ، وإنى لـكارهٌ من إخراجها عن حِضْنى إلى من يقوّمها تقويم العبيد . فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تدخِلنى فى عَددِك ، وتخلِطنى بشَملك . فقال : ولا بدّ من هذا ؟ قلت : لا بدّ . فقال : أغد علىّ برجالك .

فانصرفت منه إلى مَلأ من التجار ذوى أخطار ، فسألتهم الحضور فى غدٍ . فقالوا : هذا رجل قد ردّ من هو أثرى منك ، وإنك لتحرّكنا إلى سَعْى ضائع . قلت لابدّ من ركوبكم معى . فركبوا على ثقة من أنه سيردّهم .

فصاح ابن أيمن ، وقد كادت روحه تخرج : فذهبتَ فزوّجك بالجميلة الرائعة أمّ هذين ، فما خبر تلك الدميمة ؟

قال مسلم : ياسيدى قد صبرتَ إلى الآن ، أفلا تصبر على كلماتٍ تنبئك من أين يبدأ خبر الدميمة ، فانى ما عرفتها إلا فى العُرْس .

قال : وغدَونا عليه فأحسنَ الاجابة وزوّجنى ، وأطعم القوم ونحر لهم ، ثم قال : إن شئت أن تبيت بأهلك فافعل ، فليس لها ما يحتاج إلى التلوّم عليه وانتظاره .

فقلت : هذا ياسيدى ما أحبه . فلم يزل يحدّثنى بكل حسن حتى كانت المغرب ، فصلاّها بى ، ثم سبّح وسبّحت ، ودعا ودعوت ، وبقى مقبلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفت لغير ذلك . فأمضّنى — علم الله — كأنه يرى أن ابنته مُقبلةٌ منى على مصيبة ، فهو يتضرّع ويدعو . ثم كانت العتَمةُ فصلاّها بى ، وأخذ بيدى فأدخلنى إلى دار قد فُرشتْ بأحسن فرش ، وبها خدم وجوارٍ فى نهايةٍ من النظافة . فما استقرّ بى الجلوس حتى نهض وقال : أستودعُك الله ، وقدّم الله لـكما الخير وأحرز التوفيق .

واكتنفنى عجائزُ من شمْله ، ليس فيهنّ شابّة إلا من كانت فى الستين . . . فنظرت فاذا وجوه كوجوه الموتى ، وإذا أجسام بالية يتضامّ بعضها الى بعض ، كأنها أطلال زمن قد انقضى بين يدىّ .

فصاح ابن أيمن : وإن دميتك لعجوز أيضاً ... ؟ ما أراك يا ابن عمران إلا قتلت أمّ الغلامين ... !

قال مسلم : ثم جلَوْن ابنته علىّ وقد ملأْن عينىّ هرماً وموتاً وأخْيلَة شياطين وظلال قرود ؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتى ، حتى أسرعن فأرخَيْن الستور علينا ؛ فحمدت الله لذهابهن ، ونظرت .

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ : لقد أطلتَ علينا فستحْكى لنا قصتك إلى الصباح ، قد علمناها ، فما خبر الدميمة الشوهاء ؟

قال مسلم : لم تكن الدميمة الشوهاء إلا العروس ! .....

* * *

فزاغت أعين الجماعة ، وأطرق ابنُ أيمن إطراقةَ من وَرَدَ عليه ما حيّره . ولـكن الرجل مَضى يقول : ولما نظرتها لم أرَ إلا ما كنتُ حفظتُه عن أبى عبد الله البلخىّ ، وقلتُ : هى نفسى جاءت بى إليها ، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملاً يعمل فىّ ويدبّر ويُصرّفنى . وما أسرعَ ما قامت المسكينةُ فأكبّت على يدى وقالت :

« ياسيدى ، إنى سرٌّ من أسرار والدى ، كتمه عن الناس وأفضى به إليك إذ رآك أهلاً لستره عليه ، فلا تُخْفِر ظنّه فيك . ولو كان الذى يُطلَب من الزوجة حسنَ صورتها دون حُسْن تدبيرها وعفافها لعَظُمت محنتى . وأرجو أن يكون

معى منهما أكثرُ مما قصَّر بى فى حُسْن الصورة ؛ وسأبلغ محبّتك فى كل ما تأمرنى . ولو أنت آذيْتَنى لعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً ، فكيف إن وَسِعنى كرَمُك وَسَتْرك ؟ إنك لا تعامل الله بأفضلَ من أن تكون سبباً فى سعادة بائسة مثلى . أفلا تحرص ياسيدى على أن تكون هذا السببَ الشريف ؟ »

ثم إنها وثبتْ فجاءت بمالٍ فى كيس وقالت : ياسيدى ، قد أحلَّ الله لك معى ثلاثَ حرائر وما آثَرْتَه من الاماء ؛ وقد سَوَّغتُك تزويجَ الثلاث وابتياعَ الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد وقفتُه على شهواتك ، ولستُ أطلب منك إلا سَتْرى فقط .

***

قال أحمد بن أيمن : فحلف لى التاجر : إنها ملكتْ قلبى مِلْكاً لا تصل اليه حسناءُ بحسنها ، فقلت لها : إن جزاء ما قدَّمتِ ما تسمعينه منى : « والله لأجعلنّك حظىّ من دنياى فيما يُؤْثِره الرجل من المرأة ، ولأَضْرِبَنَّ على نفسى الحجاب ما انظر نفسى إلى أنثى غيرك أبدا . » ثم أتممتُ سرورَها فحدثتها بما حفظته عن أبى عبد الله البلخىّ . فأيقنتْ والله يا أحمد أنها زلتْ منى فى أرفع منازلها ، وجعلتْ تحْسُن وتحسن كالغصن الذى كان مجرودا ثم وخزته الخضْرة من هنا ومن هنا .

وعاشرتُها فاذا هى أضبط النساء ، وأحسنهن تدبيراً ، وأشفقهن علىّ ، وأحبُّهنّ لى ؛ وإذا راحتى وطاعتى أوّلُ أمرها وآخره ؛ وإذا عقلها وذكاؤها يُظهران لى من جمال معانيها ما لا زال يكثر ويكثر ، فجعل القبح يقلّ ويقل ، وزال القبح باعتيادى رؤيته ، وبقيتْ المعانى على جمالها ؛ وصارت لى هذه الزوجة هى المرأةَ وفوق المرأة .

ولما ولدتْ لى جاء ابنها رائع الصورة ، فحدثتْنى أنها كانت لاتزال تتمنىّ على كرم الله وقدرته أن تتزوّج وتلد أجمل الأولاد ، ولم تدعْ ذلك من فكرها قط ، وألّف لها عقلُها صورة أجمل غلام تتمثله وما برحت تتمثله . فاذا هى أيضا كان لها شانٌ كشانى ، وكان فكرُها عملاً يعمل فى نفسها ، ويديرها ويصرّفها .

ورزقنى الله منها هذين الابْنيْن الرائعيْن لك ، فانظر أىَّ معجزتين من معجزات الايمان . ؟

مصطفى صادق الرافعى
طنطا

صفحة من التاريخ

ميــــدان القبق

بين السعد والنحس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

صف لى ملاهى قوم من الأقوام أصف لك خلقهم ونصيبهم من الحياة — وإذا أخطأنى حظ الاصابة مرة لم يكن الخطأ إلا مؤقتاً ، ويكون تطاول الأيام كفيلاً بتحقيق ما أتوقع — وليس ذلك ناشئاً من أن الله قد وهبنى ما لم يهب سواى من قدرة على التكهن أو التنبؤ ، بل هى مجارى الأقدار تنساق فى سبيل لا حيلة فى الحيد عنها ، ولا وسيلة إلى الانفلات منها .

وقد علمت أن الرومان أقبلوا على ملاهٍ يقشعر بدن الانسانية من تصور ماكان يجرى فيها من فظائع . وايمن الحق ما كان لامرىء أن يتنبأ لشعب الرومان إلا بالانحدار والانحلال ما دامت نفوسهم لا تهتز إلا بسفك الدماء ، ولا ترتاح إلا إلى مناظر الوحشية . وقدرأيت ماتنم عليه آثار مدنية پومپى من هُوىّ إلى سحيق الدعارة ، وماكان لك أن تتطلع فى مستقبل ذلك الشعب إلا إلى نزول وهبوط ، إذ أن النفوس لا تلهو إلا بما مرنت عليه واطمأنت إليه وسرى فى عاداتها وتغلغل فى حياتها . وللحياة القوية مطالب وتكاليف ، إذا اعتادت النفوس القيام عليها صارت لذتها فى مباشرتها . ودونك من الشعوب القوية ما يوضح ذلك أتم إيضاح ، فذلك شعب الانجليز ترى لذة شبانه وكهوله فى ممارسة الرياضة بأنواعها ، والجولان فى البحر والبر والهواء ، يجدون اللذة القصوى فى مقارعة الأخطار ومقابلة العقبات . وإذا شئت مثلاً آخر فلن تعوزك المُثُل ، فالشعوب القوية ولله الحمد كُثْر فى كل عصر ، ولن ترى شعباً قوياً تنزو به الحياة وتثب به القوة إلا رأيت لذته فى مثل مقارعة الخطوب ومنازلة قوى الطبيعة . ولقد كان لنا آباء — رحمهم الله — لم يكونوا من المتخلفين فى ميدان الحياة . بل كانوا حماة عصرهم وسادة جيلهم . ولست

أتردد فى أن أسميهم بالآباء ، على أنهم قد لا يكونون لى آباء . كما أننى لا أتردد فى أن أسمى الفراعين آبائى ، ولعلهم لم يكونوا من آبائى . فاننى لا تجرى فىَّ دماء الملوك . ولئن كان فىَّ شئ منها فقد جهلته . فالملوك الأقدمون منذ خلدوا على صفحات التاريخ قد أصبحوا اليوم آباء لنا فى أنهم كانوا الحفظة لمثُلنا العليا ، والقوّامَ على آمالنا القومية . فهم آباؤنا فى التراث القومى وإن بعدت بيننا علاقات النسب . لا ، بل وإن اختلفت ألوان الدماء وتباينت مواطن الشعوب .

فى جانب القاهرة المعزية من الشمال الشرقى حى اسمه الآن حى العباسية الشرقية ، ومن ورائه من ناحية الجبل مساحة عظيمة مسطحة لا تكاد ترى فيها نشزاً . وقد اختطت فى بعض جهات هذا المتسع فى أيامنا الحاضرة مدافن حديثة شقت ما بينها الشوارع وأُنشئت الحدائق ، وهذا السهل يتصل إلى جنوب القاهرة فيما يلى قلعة الجبل لا تكاد ترى فى كل هذه المسافة تلا يعكر سهولة السطح ، وهذه المساحة هى بعينها الميدان القديم الذى أنشأه أحد أجدادنا العظام الذين قدمت الاشارة إليهم ، وهو الملك العظيم الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ وكان اسم هذا الميدان الفسيح فى تسمية العامة : (الميدان الأسود) أو ميدان السباق . وكان فى تسمية الخاصة : (ميدان القَبَق) .

أما القبق فهو آلة من آلات التمرين الحربى ، وهو عبارة عن قرص كبير من الخشب يوضع فوق سارية عالية ، ويوضع وراءه هدف يرمى إليه الجنود سهامهم ؛ وكان الرمى بالقسى والسهام من أكبر وسائل الرياضة عند أهل ذلك العصر من سنى القرن الثالث عشر الميلادى أو القرن السابع الهجرى .

وكانت مصر حينئذ قلب الشرق الاسلامى وكنانته . إذ كانت بلاد ما بين النهرين قد أكلتها نيران التتار ، وأصبحت دامية صريعة تئن تحت سنابك خيل أحفاد جنكيز خان . وكانت بلاد الشام لا تزال تعانى بقايا الفتح الأوربى الذى اعتراها فى مدة الحروب الصليبية ، وكانت أوربا لا تزال فى أول أدوار النهضة بعد أمد العصور الوسطى ، ولا تزال على عقليتها القديمة التى دفعتها الى الحروب الصليبية تحاول ما استطاعت أن تبطش بدول الاسلام . فكان على دولة مصر أن تحفظ مدنية الاسلام ، وتراث العلم والنور من موجة التتار المخربة المدمرة من جانب الشرق ، وأن تدفع عادية أوربا المحنقة الثائرة من جانب الغرب . ولهذا كان لا مفر من أن تكون مصر على رباط دائم ، وفؤاد يقظ حديد .

وكان بيبرس ممثل الدفاع فى القرن الثالث عشر الميلادى ؛ حمل الراية مدة حكمه الطويل فكان بطلاً موفقاً مجدوداً لم تكن أعوامه تخرج عن عام غزو فى بلدة من بلاد الشام ، أو عام موكب انتصار عقب فتح من الفتوح . وما كانت مواسم مصر على يديه إلا تلك المواسم النابضة بالحماسة ، الجياشة بمعانى الرجولة والحياة القوية .

وكان ميدان القبق مشهد أكبر المواسم وأحبها الى الناس، سواء فى ذلك العامة والخاصة . وها نحن أولاء نصف واحداً من تلك المواسم البيبرسية التى سادها السعد والتوفيق ؛ فكان مبعث سرور للآلاف من الناس وآية مجد وجلال للدولة ورجالها .

كان ذلك فى يوم شديد الحر فى شهر رمضان ؛ وكانت العادة أن ترش أرض الميدان الأسود بالماء قبل أن يبدأ فيه الاحتفال ؛ فرأى السلطان الجليل (بيبرس) أن رشّ هذا الميدان الفسيح فى مثل هذا اليوم القائظ وفى شهر الصيام فيه تكليف شاق على الناس . وأشفق أن ينالهم من ذلك أذى ، فأمر بأن يكف الناس عن الرش وأن يتحمل هو وجنوده مشقة الاحتفال فى القيظ بغير ترطيب الأرض بالماء .

وأبى الله أن يجزى مثل هذا العطف بغير جزائه . فكان من دلائل سعد السلطان ويمن أيامه أن ساقت الرياح غمامة فى ذلك اليوم على غير عادة فى مثل ذلك الوقت ، فأمطرت الميدان حتى رطبت أرضه ، ثم أقلعت . وما أتى وقت الاحتفال حتى رأى بيبرس وفرسانه ميداناً دهسا غير ملبد ولا زلق .

ودخل السلطان العظيم على رأس قواده وجنوده ، فكلف كبارهم باظهار ما عندهم من البراعة فى الرماية . ووقف الناس ألوفا حولهم يعجبون بما يرون ، وتثب قلوبهم سروراً بما يعجبون به ، إذ رأوا حماتهم جديرين بما أولوهم من زعامة فى الدفاع المجيد .

ثم ركب السلطان فى قمة الصف ، واصطف وراءه القواد والجنود بحسب المراتب المرسومة ، وحمل كما يحمل إذ يكون

فى ميدان الحرب وحمل وراءه أتباعه كباراً وصغاراً ، كأنما هم رجل واحد ، ولهم إرادة واحدة . فاذا كر السلطان كانت الألوف وراءه بجزء منه ، وإذا لف كانت الألوف من خلفه كأنما هى قطعة واحدة — وتعالت عند ذلك أصوات الأعجاب والحماسة ، واختلطت بزفرات الدعاء والولاء ، فلقد كان بيبرس العظيم مليكا على الناس مسيطراً على الأفئدة .

وانتهى اليوم على ما ابتدأ به من السعد ، ووزعت الهبات والصلات ، وتتابعت العطايا والهدايا ، ونال الناس من بر ذلك اليوم ما لم يفت طبقة من الطبقات ، فقد قرت أعين الأمراء بالتكريم ، وأثلجت صدور الفقراء بالعطاء .

وما كان مثل عصر (بيبرس) ليذهب بغير أثره ، فقد أصبح الناس جميعاً ولا همة لهم إلا فى تقديس أبطال الفرسان ، ولا مسرة إلا ما تبعثه مناظر الكر والفر ، وأصبح بفضل هذا الروح فى مصر جيش من أبطال ما زالوا مضرب الأمثال فى النظام والشجاعة والمهارة ، وأصبح الشعب وذهنه منصرف إلى ناحية حياة الرجولة والدفاع والنضال ، لايقبل على لهو إقباله على شهود أيام الاحتفال . قال المقريزى فى وصف ذلك : « وصارت تلك الأمكنة لاتسع الناس ومابقى لأحد شغل إلا لعب الرمح ورمى النشاب » .

غير أن ذلك الميدان لم يشهد السعد وحده ، بل شهد بعض ساعات من النحس بعد أن تغير الزمان وتبدل الحال . ولم يكن فى الامكان أن يجود الزمان بالأفذاذ يتبع بعضهم بعضاً بغير انقطاع . وإلا فلم سمى الأفذاذ أفذاذاً ؟

فحكم مصر فى أواخر القرن الثالث عشر المسيحى سلطان آخر يمتاز عن بيبرس بأنه من سلالة ملكية ، إذ كان أبوه سلطاناً قبله ، غير أنه لم يكن فى مثل قوة بيبرس ولا فى مثل توفيقه وسعده ، وذلك هو السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

أراد يوماً أن يحتفل احتفالاً مجيداً كمن سبقه من السلاطين العظام ، واختار ميدان القبق لذلك الاحتفال ، وأراد أن يجعل ذلك الاحتفال على ما شاء له الملك الضخم والغنى الواسع وبيت العز الجليل . وكانت الخاتون الجليلة زوجة السلطان على وشك أن تضع ولداً . وكان أكبر أمل الملك العظيم أن تلد له غلاماً يكون وارثاً لملك جده وأبيه ، وسبق السلطان الأقدار إلى إعداد العدة لاستقبال المولود السعيد المنتظر ، وكان يرجى أن يكون يوم ذلك الاحتفال هو يوم الوضع الموعود .

ومهد الميدان ورشت جوانبه ، وجهزت أدواته وآلاته ، وزينت طرقه وحواشيه ، وأقبل السلطان فى موكبه الفخم وركابه المهيب . وابتدأ الاحتفال يباهى الايام الماضية بجلاله وضخامته ، غير شىء واحد كان غير ماثل فيه ، وهو جلال بيبرس العظيم وتعلق قلوب الشعب والجنود به . وجرى كل شىء على سَنَنِه المعتاد غير أمر واحد ، وهو سعد السلطان بيبرس العظيم وتوفيقه . فماهى الا جولة حتى اغبر الجو وأظلمت السماء ، وثارت عاصفة هوجاء يكاد الواقف فيها لا يرى جاره أو يستبين ما حوله . فتحول اليوم من احتفال وعيد الى فوضى واختلال ، وهدم فى ساعة ما قضى السلطان فى إعداده أياما طوالا وبذل فى سبيله اموالا طائلة . ثم وضعت الخاتون طفلها أنثى ، ولم يتحقق أمل السلطان فى وارث يحفظ الملك عقبه فى بيته .

وهكذا تجرى الأقدار فى مسالكها الغامضة ، وإنما يرى الناس منها الآثار التى تدهش لها الألباب وتعشى منها الأبصار ، بغير أن يستطيعوا رؤية ما وراء ذلك من تدبير القضاء ، فكان ذلك اليوم آخر ما شهده ميدان القبق من جليل الاحتفال . حقاً لقد عاد اليه بعض الملوك حيناً وأرجعوا اليه الحلبة ، غير أن الروح لم يعد إليه ، والروح سر عجيب لم تستطع البشرية أن تسمو اليه ، فانه يحل فلا تعرف أنه حل الا من آثاره ، ثم يذهب فلا تدرك ذلك الا من آثار ذهابه ، ولكنه غامض غموض المغيب المحجوب . ومن أعجب ما فيه أن السعد إنما يقبل مع اقباله ، والنحس إنما يحل عند إدباره ، وانه إذا كان أدبر يوماً ، فلا جرم أنه يدبر لكى يعود فى يوم آخر ، ولو بعد حين .

محمد فريد أبو حديد

القتل السياسى

جريمة مرسيليا المروعة

عرض تاريخى لظروفها وبواعثها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يشهد العالم منذ مقتل الارشيدوق فرنز فرديناند ولى عهد الامبراطورية النمسوية فى يونيه سنة ١٩١٤، جريمة سياسية أشد روعة وأبعد أثراً من تلك الجريمة التى وقعت فى التاسع من هذا الشهر فى مرسيليا، والتى ذهب ضحيتها المرحومان الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا، ومسيو لوى بارتو وزير الخارجية الفرنسية. وقد كان مقتل الارشيدوق فرنز فرديناند فاتحة الأزمة الدولية الخطيرة التى انتهت بنشوب الحرب الكبرى، وكانت من أسبابها المباشرة. ومن المحقق أن جريمة مرسيليا ستحدث أثرها فى شئون يوجوسلافيا الداخلية، وفى سير السياسة الاوربية بوجه عام؛ ومن الصعب أن نقدر منذ الآن مدى هذه الآثار، وإن كنا نشهد منذ الآن نذرها ومقدماتها.

كان الاغتيال وما زال على كر العصور وسيلة لتحقيق مآرب السياسة. وجريمة الامس جريمة سياسية وقومية كما كانت جريمة سنة ١٩١٤. وقد شهدت اوربا فى العصر الحديث طائفة حافلة من الجرائم السياسية الرنانة؛ وكان الملوك، والملوك الطغاة بنوع خاص هدف هذه الجرائم، ولم تكن هذه الجرائم شخصية، ولم تقع على الملوك أو الطغاة لمجرد اشخاصهم، ولكن لانهم يمثلون فى نظر الجناة نظاما أو فكرة لاتتفق مع مثلهم القومية أو الديموقراطية. وكانت «النهليزم» الروسية أعظم مصادر الوحى للقتل السياسى خلال القرن التاسع عشر؛ وفى ظلها وبتدبيرها ارتكبت عدة جرائم رنانة على أشخاص القياصرة وأعوانهم من الطغاة؛ وذهب ضحية هذه الجرائم قيصران: اسكندر الثانى سنة ١٨٨١، واسكندر الثالث سنة ١٨٨٥، وعدة من اكابر الحكام والساسة. ولما خبت ريح النهليزم فى اواخر القرن الماضى خلفتها الدعوة اللاحكومية (الانارشى) فى تنظيم الجريمة السياسية؛ وذهب ضحية هذه الدعوة عدة من الملوك والا كابر مثل كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية، والامبراطورة اليزابيث النمسوية، وما كنفلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة، ثم الملك أومبرتو ملك ايطاليا الذى قتل سنة ١٩٠٠ بعد عدة محاولات دموية مروعة. ووقعت فى الاعوام الأخيرة على الملوكيـة عدة محاولات جديدة دبرها اللاحكوميون ايضاً، كان منها الاعتداء الذى وقع على الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا السابق (سنة ١٩٢٦)، والاعتداء الذى وقع على جلالة ملك ايطاليا (سنة ١٩٢٨)

هذه أمثلة قليلة من ثبت القتل السياسى الحافل الذى شهدته اوربا فى العصر الأخير. ولكن جريمة مرسيليا تختلف عما تقدم فى ظروفها وبواعثها؛ فهى جريمة قومية عنصرية كما سنرى؛ وهى اثر بارز من آثار ذلك الصراع الجنسى الذى تضطرم به امة ينقصها التناسق الجنسى، والتضامن القومى، وتمثل فيها اقليات قومية غير راضية عن مركزها ومصايرها؛ وهى كذلك أثر من آثار ذلك الطغيان الحديدى الذى تعيش فى ظله يوجوسلافيا منذ ستة اعوام، والذى تشعر بوطأته الاقليات الساخطة بنوع خاص. والقاتل بتروس كالمن Petrus Kalemen، كرواتى الاصل، ينتمى الى الشعب الكرواتى، أو إلى تلك الاقلية القوية التى ترزح تحت حكم الاغلبية الصربية ولاتشعر نحوها الا بعواطف الغيرة والسخط. وقد وقعت الجريمة المروعة فى ظل هذه المعركة الجنسية المضطرمة، واندفع الجانى او الجناة فى طريقهم بوحى الفكرة الجنسية التى تسيطر على شعب يعتقد أنه مغبون مضطهد مسلوب الحقوق،

ويجب لكى نفهم ظروف الجريمة وبواعثها الحقيقية أن نعود بضعة أعوام الى الوراء، ففى سنة ١٩٢٨، وقع الفصل الاول من حوادث هذه المأساة فى بلغراد فى بهو الجمعية الوطنية (اسكوبشتينا) ذاتها، وكان ذلك فى مساء ٢٠ يونية، وكانت المناقشة تدور حادة بين نواب الأكثرية من الصرب والسلوفين، ونواب الاقلية المعارضة، وهم نواب الشعب الكرواتى حول العلائق اليوجوسلافية الايطالية وموقف الحكومة منها، وكانت المعارضة ممثلة فى حزب الفلاحين الكرواتى ورئيسه استيفان رادتش زعيم كرواتيا الوطنى، والحزب الديموقراطى المستقل وزعيمه بربتش فتش؛ فلم تلبث المناقشة أن تحولت الى نوع من السباب والتراشق المقذع؛ وعندئذ نهض أحد نواب الحزب

الراديكالى الصربى ، وهو حزب الأغلبية أو حزب الحكومة ، وأطلق الرصاص على مقاعد حزب الفلاحين فقتل من نوابه اثنان أحدهما بول رادتش قريب الزعيم رادتش وأحد أقطاب الحزب ، وجرح ثلاثة آخرون منهم استيفان رادتش نفسه زعيم كرواتيا الوطنى . ووقع على أثر هذه الجريمة المروعة اضطراب لا يوصف فى بلغراد وفى كرواتيا ، وأوقفت جلسات الجمعية الوطنية واستقالت الوزارة القائمة ، واستمرت الأزمة الوزارية نحو شهرين . ثم كانت الطامة الكبرى بوفاة استيفان رادتش زعيم كرواتيا متأثراً من جراحه بعد ذلك بأسابيع قلائل ؛ فشيعه مواطنوه إلى قبره فى مظاهرات فخمة مؤثرة تجلت فيها البغضاء الجنسية التى يضطرم بها الكرواتيون نحو الصربيين ونحو حكومة بلغراد

كان لهذه الفاجعة الوطنية أثر عظيم فى إذكاء الأحقاد الجنسية فى مملكة يوجوسلافيا الجديدة ، وهى أحقاد تقوم على تراث التاريخ ، وتنافر العناصر التى تتألف منها . ذلك أن مملكة الصرب القديمة المتواضعة استحالت عقب الحرب الكبرى الى مملكة جديدة تسمى مملكة الصرب والسلوفين والكروات ؛ تضم مملكة الصرب القديمة ، وأمارة الجبل الأسود ، وسلوفينا ، وكرواتيا ، ودلماسيا ، والبوسنه والهرسك ، وبعض أنحاء أخرى من امبراطورية النمسا والمجر القديمة . والشعب الصربى هو الكثرة بين هذه الأجناس المتنافرة ، وهو صاحب الحكم والسيادة ، واليه تنتمى الأسرة الملكية ومعظم الوزراء والحكام والقادة . وكانت كرواتيا أو بلاد الكروات بين الولايات الجديدة أشدها مراساً وأعرقها قومية وتعصباً . وتشغل كرواتيا نحو خمس المملكة الجديدة وعاصمتها « زغرب » أو « أجرام » مدينة قديمة سكانها نحو ربع مليون وبها جامعة . والكروات شعب جبلى فلاح ساذج يبلغ زهاء ثلاثة ملايين من مجموع قدره ثلاثة عشر مليوناً . وكان الشعب الكرواتى قبل الفتح التركى فى القرن الخامس عشر يتمتع باستقلاله فى ظل مملكة بلقانية قوية ، ثم غدت كرواتيا كما غدت صربيا والمجر ولاية عثمانية ، وضمت منذ أواخر القرن التاسع عشر الى النمسا والمجر . ولم ينس هذا الشعب الجبلى الوعر استقلاله ونزعته القومية ، فكان فى ظل الأمبراطورية النمسوية يجيش بالأمانى الوطنية ، ويطمح الى الاستقلال الذاتى ؛ ولم يقف الى جانب آل هبسبورج أثناء الحرب إلا طمعاً

فى تحقيق شىء من أمانيه القومية . واستمرت تحفزه مثل هذه الأمانى فى ظل يوجوسلافيا الجديدة ؛ وكان بطل كرواتيا الوطنى استيفان رادتش رئيس حزب الفلاحين أقوى الأحزاب الكرواتية وأشدها نفوذاً ؛ وكان هذا الزعيم القومى الذى كونه مزيج من الثقافات الألمانية والفرنسية والروسية يسيطر ببيانه الساحر وخلاله القوية على مواطنيه ويقودهم حيثما شاء ؛ وكان حزب الفلاحين حتى سنة ١٩٢٥ جمهورى النزعة يطالب بالاستقلال الذاتى ؛ وكانت كرواتيا تضطرم من حين لآخر بالقلاقل والمظاهرات القومية ؛ فتخمدها حكومة بلغراد الصربية بمنتهى الشدة ؛ وتذكى بذلك أحقاد الكروات الجنسية . وفى سنة ١٩٢٥ أدرك الملك اسكندر خطر هذه الحركة على وحدة يوجوسلافيا ؛ فاستدعى الزعيم رادتش وتفاهم معه ؛ وعقد اتفاق بين الصرب والكروات يمنح به الكروات بعض الحقوق والمزايا القومية ؛ فهدأت حركة الكروات الاستقلالية نوعاً وأبدى الشعب الكرواتى شيئاً من الولاء نحو العرش والحكومة ؛ واحتل الكروات مقاعدهم فى الجمعية الوطنية ؛ واشتركوا فى حكم البلاد ؛ وكان لهم فى الجمعية ٨٥ كرسياً أى نحو ربع مجموع الكراسى . ولكن هذا التفاهم لم يلبث طويلاً ؛ لأن الجبهة العسكرية المحافظة التى تحكم البلاد من وراء الملك اسكندر لم يرق لها هذا التسامح مع الأقلية ؛ ورأى الكروات من جهة أخرى أنهم لم ينالوا بهذا التهاون كل مايطمحون اليه من المزايا الاستقلالية ؛ فعاد سوء التفاهم بين الفريقين مرة أخرى ؛ واشتدت الخصومة بينهما منذ سنة ١٩٢٨ ؛ ووقعت فى كرواتيا قلاقل جديدة ؛ واتخذت المعارضة الكرواتية فى المجلس اتفاقات «نتونو» التى عقدت يومئذ بين يوجوسلافيا وإيطاليا بشأن الحدود مادة لحملات قوية على حكومة بلغراد والملك اسكندر ؛ واستمرت هذه الحملات فى شدتها حتى ضاقت حكومة بلغراد وضاقت الأكثرية الصربية البرلمانية بها ذرعاً ؛ ووقعت بين الفريقين فى الجمعية مناقشات ومناظر عاصفة انتهت فى ٢٠ يونيه سنة ١٩٢٨ بوقوع تلك المذبحة البرلمانية الرائعة ، وسفك دم الزعماء الكروات فى نفس المجلس الذى دعوا الى الاشتراك فى أعماله ، ومصرع استيفان رادتش زعيم كرواتيا القومى ومعبودها الوطنى .

وهنا أدرك الملك اسكندر خطورة الموقف ، وحاول مرة

أخرى أن يعمل على تهدئة الأحقاد القومية التى أثارتها الجريمة ، ولكنه لم يستطع فيما يظهر أن يغالب نفوذ العسكرية المسيطرة على الحكم ؛ فلم تتخذ حكومة بلغراد فى شأن النائب أو النواب القتلة إجراءات جدية تهدىء الشعور المضطرم ؛ وكان موقفها فى ذلك كموقفها يوم مقتل الأرشيدوق فرديناند من عطف على الجريمة ورفق بالجناة ؛ وأخمدت حركات زغرب عاصمة كرواتيا ومظاهراتها بشدة ، وساد حكم الارهاب فى كرواتيا ، وطورد زعماؤها وأبناؤها أشد مطاردة ؛ وأبدت حكومة بلغراد وعمالها الصربيون فى معاملة الشعب المغلوب منتهى الخشونة والقسوة ؛ فتوجست العناصر الأخرى شرا واشتدت الأحقاد القومية ، وتعقدت الأزمة ، وكادت يوجوسلافيا تنحدر الى الحرب الأهلية ؛ عندئذ لجأ الملك اسكندر الى إجراء خطير حاسم ؛ ففى ٢٩ يناير سنة ١٩٢٩ أعلن إلغاء الدستور والجمعية الوطنية ، وأعلن نظام جديد يقبض الملك فى ظله على كل السلطات ، وتؤلف الحكومة من ستة عشر وزيراً ، يُسألون أمام الملك شخصياً ؛ وألغى تقسيم يوجوسلافيا القديم الى ولايات عنصرية ، وقسمت الى تسع ولايات جديدة لكل ولاية حاكم مطلق ؛ وغير اسمها من مملكة الصرب والسلوفين والكروات الى مملكة يوجوسلافيا ؛ وحل حزب الفلاحين الكرواتى ، وقمعت كل حركة ومظاهرة عنصرية بمنتهى الشدة . وساد على يوجوسلافيا كلها حكم مطلق حديدى حتى اليوم . ولكن الملك اسكندر أبدى فى اضطلاعه بمهام الحكم المطلق كثيراً من الحزم وبعد النظر ؛ فاستقرت السكينة فى البلاد ، وخبت الأحقاد والنزعات القومية المحلية أمام البطش ؛ ولكنها لبثت كالنار تحت الرماد تسرى فى صمت ، وتتربص فرص الاشتعال .

وكان من المستحيل إزاء هذه المشاكل العنصرية الخطيرة ، وإزاء استئثار العنصر الصربى بالسيادة والحكم أن تحكم يوجوسلافيا بغير الحكم المطلق ، ولم يكن فى تقاليد العسكرية الصربية التى تحكم من وراء العرش ، ولا فى تقاليد أسرة كاراجورج فتش الجالسة عليه ما يؤيد النظم البرلمانية ، أو يفسح لها أى مجال حقيقى .

وقد تولت أسرة كاراجورج فتش التى ينتمى اليها المرحوم الملك اسكندر بوسائل عنيفة أيضاً . وكان العرش قبلها لأسرة أوبرينوفتش يتولاه الملك اسكندر أوبرينوفتش حتى سنة ١٩٠٣ . وفى يونيه من هذا العام دبر الحزب العسكرى بتحريض أسرة كاراجورج فتش مؤامرة كانت نتيجتها أن قتل الملك اسكندر أوبرينوفتش وزوجته مدام دراجا ماشين التى أثار زواجه بها قبل ذلك بعامين ضجة كبيرة ، فى غرفة نومهما ؛ وعلى أثر ذلك أعلن بطرس كاراجورج فتش ، والد الملك اسكندر ملكا ؛ وعهد بمهام الحكم الى الجناة الذين اشتركوا فى مقتل سلفه ، فدلل بذلك على أنه لم يكن بعيداً عن الجريمة . واستمر ملكا حتى سنة ١٩٢١ ، وخاض غمار الحروب البلقانية والحرب الكبرى ، وتولى ولده الملك اسكندر الحكم من بعده ، وكان مولده سنة ١٨٨٨ ، وكان أثناء حياة أبيه يتولى أخطر المهام العسكرية والسياسية ، فأبدى حزماً ومقدرة فى قيادة يوجوسلافيا الكبرى ، ولكنه لم يوفق الى حل المشاكل العنصرية ، ولم يستطع كبح جماح العسكرية كما قدمنا ، وشاء القدر أن يذهب ضحية الأحقاد العنصرية على ذلك النحو المؤسى .

* * *

هذه هى حقيقة البواعث والظروف التى أدت الى مقتل الملك الراحل ، فالأحقاد القومية هى التى سلحت القاتل كالمين وزملاءه الكرواتيين ، وهى التى دفعتهم الى ارتكاب جريمتهم القطيعة انتقاماً لمصرع زعماء كرواتيا الوطنيين ، وانتقاماً لما تلاقيه من آلام الاضطهاد المنظم . ومن المحقق أن سيكون للحادث أخطر الآثار فى مصاير يوجوسلافيا ، وإن كان من المستحيل أن نتنبأ اليوم بما سيكون . وقد تكون ثمت وراء الجريمة عوامل تحريض أجنبية عرفت أن تستغل الأحقاد العنصرية وأن توجهها ، ولكن الجريمة تبقى مع ذلك جريمة عنصرية ، باعثها الانتقام القومى .

إن المسألة الكرواتية تعتبر بالنسبة ليوجوسلافيا كالمسألة الأرلندية بالنسبة لانكلترا ، وستبقى خطراً دائماً على الوحدة اليوجوسلافية ، ما دامت العسكرية الصربية تأخذ بسياسة السيادة العنصرية ، ومادام الشعب الكرواتى يشعر بأنه لم يأخذ حقه من العدالة والمساواة والاشتراك فى أعباء الحكم .

أما المرحوم مسيو لوى بارتو ، فقد كان ضحية بريئة للجريمة ، ولم يقصده الجناة بالذات ، وسيكون لمقتله أثر عميق فى شئون فرنسا الداخلية ، وربما فى سياستها الخارجية .

محمد عبد الله عنان

المحامى

ابن مَنْ يا فاجرة ؟

للدكتور احمد زكي

وكيل كلية العلوم

كانت فاجرة لأنها ادعت ابنها الوليد لغير أبيه ، وهي تعلم أنه لأبيه . وكان الرجل المتهم في عرضه ، المقدوح في طهارته ، رجلاً من ذوي الثراء ، جمع من المال ما جمع في أيام صباه ، من أعمال واسعة النطاق ، وأشغال استغرقت كل زمانه فألهته عن ملذات الجسم ومُتع الشباب . وبلغته الشيخوخة على حين غفلة ، فأراد أن يدرك الفائت ، وأن يلحق بالهارب ، وأن يذكر نفسه ، ويسترجع حسه ، ويستجمع بقايا شبابه ، فطلب الأنثى الشابة ، فجاءته إناث كثيرات ، فعلم أنهن لم يُردنه ، وإنما أردن ماله ، وكان كلما أنس من بعضهن إلى الجناب الرفيق والصدر الحنون ، وكاد يهم بالخطبة ، هتف في نفسه الهاتف يقول : جناب عن قريب ينبو ، وصدر لا يلبث أن يخون . وظل على هذه الحال زماناً ، يحدوه أمله ، وترده سنه ، وقام ثراؤه يتهم كل امرأة ولو أخلصته النية ، ورضيت صادقة برعايته وحضانته وبتمريضه بكل ما فيها من أنوثة

وفي أثناء ذلك اتصل بأحد المقربين اليه من مستخدميه ، فشكا له الوحدة عرضاً ، فذهب هذا المقرب إلى زوجته تلك الليلة يذكر لها الشكوى . وفي الصباح أتت الثرى من الزوجة دعوة على طعام ، وتلت تلك الدعوة دعوات ، في حضرة الزوج ، وفي غير حضرة الزوج ، وكثيراً ما حضرها الشباب من الصحاب ، فامتلأت البطون ، واحتر الدم بالرقص والشراب ، وكثيراً ما نسى الشيخ وقاره في تلك الأجواء الزائطة ، فنال من الزوجة المضيافة القبلة بعد القبلة ، فأعطت عن سخاء ، على أعين ضيوف اليوم الفرحين ، وشهود الغد المُحرَجين .

فلما ولد المولود ، وهمّ الشيخ بالتبريك ، جاءه رسول القضاء يعلن اتهامه . وانعقدت المحكمة ، وجاءها الشهود كأنما كانوا على موعد ، فأثبتوا روحاته وجيئاته ، وأثبتوا إختلاءه ، وأثبت الزوج تغيبه ، ولم يبق على استقلال الطفل بكل تلك الثروة الواسعة من بعد أبيه إلا حكم المحكمة

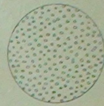
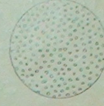
وفي اللحظة الأخيرة طلب الدفاع نجدة العلم ، والالتجاء الى المعمل عسى أن تكون عنده الشهادة التي لا تُرَد ، وفي الغد أو الذي يليه احتكموا عند أحد الاخصائيين المحلّفين الى قطعة زجاج ، وبغض سوائل في أنابيب ، ثم الى المكرسكوب — جمادات كلها لاتكذب إذا كذب الانسان . وبذلك ، وبذلك وحده ، نجا الشيخ من الشرك ، ونذر ماعاش أن يبتعد عن الآنسات ميلاً ، وعن المتزوجات أميالاً .

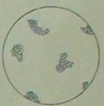
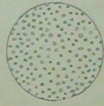
ثم غلب التهمة الملحّة في نفسه واقترن بأرملة ، باعدت عنه الريب وحملت عنه أعباء الحياة

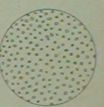
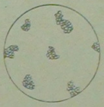
أما همنا اليوم ففي تلك الأشهاد من الجماد . وقصة ذلك أن الدم الانساني يتركب من كُرَات حمراء وأخرى بيضاء ، يَسْبحن في سائل يُسمى المصل ، عديم اللون أو هو كلون زلال البيض ، يحتوي عدة مواد ذائبة فيه . وقد كشف العلماء في الكرات الحمراء عن مادتين تسمى أولاهما ألفاً والثانية باء . ووجدوا فوق هذا أن الكرات الحمراء للرجل (أو المرأة) قد تحتوي على المادة ألف وحدها ، وقد تحتوي على المادة باء وحدها ، وقد تحتوي عليهما معاً ، وقد تخلو منهما جميعاً . وبناء على ذلك قسموا الناس الى مجموعات أربع : مجموعة ألفيّة ، ومجموعة بائيّـة ، ومجموعة ألفبائية ، ومجموعة صفرية ، نسبة الى الصفر في قولك رجل صفر اليدين أي خاليهما . فانا وأنت وكل أحد لا بد واقعون في أحد هذه الأقسام . وتعرف المجموعة التي ينتسب اليها الفرد من تفاعلات تقع بين الدماء عند خلطها . فهب أني أنا من المجموعة الألفية ولا فخر ، وهب أنك أنت من المجموعة البائية ولاحط من قدرك ، فلو أنك أخذت شيئاً من دمي ، وفصلت عنه مصله ومزجته بنقطة من دمك لتجمعت كراتك الحمراء وتزاحمت في هلع وارتياع ، كقطيع النعاج داهمها الذئب ، فاتخذت تحت المكرسكوب شكل عنقود العنب . وسبب هذا أن بدمي مادة معادية خصيمة لكراتك الحمراء ، أو بالأحرى للمادة البائية التي بها . وعلى هذا تسمى مادتي هذه بالخصيمة البائية .

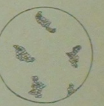
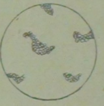
ولو أنك مزجت مصل دمك بدمي لتعنقدت كراتي الألفيّة كذلك ، لأن بمصلك الخصيمة الألفية . فبدمي إذن المادة الألفية والخصيمة البائية ، وبدمك أنت المادة البائية والخصيمة الألفية ، والزوجان في دمك وفي دمي بالطبع على غاية المحبة والوفاق وإلا لتعنقدت كراتنا جميعاً وودعنا الحياة ، لأن تلك الكرات لابد من نفاذها في الشعريات الدموية الرفيعة التي تصل ما بين الأوردة والشرايين

وهناك دم ثالث نستعير لشرحه صديق الأستاذ الزيات ، فدم الأستاذ تجمع كراته الحمراء المادتين ألفاً وباء معاً ، فلو أنك

فى كل سطر أفقى قطرتان من دم واحد أضيف إلى يسراهما مصل من دم ألفى وإلى يمناهما مصل من دم بائى فكانت النتيجة المكتوبة أمام كل من الدماء الأربعة

خلطت نقطة من مصلى بقطرة عزيزة من دمه لتعنقدت كراته ، ولو أنك خلطت نقطة من مصلك بتلك القطرة لتعنقدت كذلك ، فصديق الزيات من المجموعة الألفبائية . أما الدم الرابع فخالية كراته من كلتا المادتين فهى لا تتعنقد لا بمصلى ولا بمصلك .

وتابع العلماء دراسة دماء الناس فى نواحى المعمورة تقصياً فى البحث ، وامتحنوا دماء الصغار والكبار ، والأبناء والآباء لآلاف من الأسر ليتعرفوا العلاقة التى قد تكون بين الولد والأصلاب والأرحام التى انحدر منها ، فوجدوا قوانين مطردة على مقتضاها ينسل الناسل . من ذلك أنهم وجدوا أن الطفل الألفى يتحتم أن يكون من أبوين أحدهما على الأقل ألفى . وأن الطفل البائى يتحتم أن يكون من أبوين أحدهما على الأقل بائى . وأن الأب أو الأم إن كان أحدهما ألفبائياً ورّث كلا من بنيه ألفاً أو باء . فالرجل الألفبائى لا ينتج طفلاً صفرياً . كذلك إن كان الطفل ألفبائياً تحتم أن يكون قد ورِث ألفاً من أحد أبويه وباءً من الآخر ؛ ومثل هذا الطفل لا ينتج عن أب صفرى

وفى قضية الشيخ المثرى التى فات ذكرها امتُحن دم الزوجة بأخذ قطرة دم من أنملها ، وقسمت القطرة قطرتين ، مُزجت



الرجل يعطى من دمه

إحداهما بمصل الخصيمة الألفية فعنقدت كراتها ، ومزجت الأخرى بمصل الخصيمة البائية فلم تتعنقد الكرات ، فقُضى بأن الأم من الفصيلة الألفية . وامتُحن دم الوليد على هذا النحو فكان من الفصيلة البائية ، فلزم على هذا أن يكون أباه بائياً أو ألفبائياً . فامتحن الزوج فكان بائياً . وامتحن الشيخ فكان صفرياً ، فنجا

على أن امتحان الدم قد لا يؤدى الى نتيجة حاسمة . فلو أن الشيخ كان بائياً أو بائياً ألفياً لجاز أن يكون الوليد من صلبه ، ولجاز أيضاً ألا يكون . وقد حسب حاسب عدد الحالات التى يمكن فيها الجزم بوالد الطفل منسوبة الى الحالات جميعها التى يحدث فيها اشتباه ، فوجد أنها تبلغ الثلث

وأريد أن أنبه أن المعمل قد يبرّىء ، ولكنه لا يستطيع وحده أن يتهم أحداً . فهب أن الولد كان بائياً ، والأم ألفية ، وكان زوجها ألفياً ، وامتحن الشيخ فكان بائياً ، فهل يُقطع بأبوة الشيخ من أجل شهادة المكرسكوب وحدها ؟ كلا . فكم من الرجال بائيون ! ولِمَ لا تكون الزوجة اتصلت بأحدهم ؟ وإذن كان يتحتم على الاتهام إثبات ما كان بين الشيخ والمرأة فى مسالك الحياة

أحمد زكى

عصران في دار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

هي أسرة واحدة تعيش تحت سقف واحد، ولكن عصور أفرادها متباعدة، وثقافاتهم متعددة متفاوتة، والحضارات التي يمثلونها لا تنفك تتصادم وتحترب في دارهم. وقد عرفت بعضهم في لبنان وبقيتهم في مصر، وكنت أتمشى يوماً قبل الغروب في طريق «ضهور الشوير»، والشوير «ضيعة» كما يسمونها، أو قرية في واد يشرف عليه الجبل، فهذا هو «الضهور» أو «الظهور»، فملت الى مكان هناك يسمونه «قهوة الحاج الياس» وهي قائمة بين بساتين فاكهة وزهر، فلمحت في طريقي مَنْ ظننتها واحدة ممن عرفتهن هناك، فحثثت الخطى اليها، فاذا هي فتاة لاعهد لي بها، وليس بنظري قِصر، ولكني كنت مطفلاً، وكانت الشمس قد اصفرت وضعف ضوؤها، وكان الشجر يحجب وجهها عني — أعني الفتاة لا الشمس — فلي العذر إذا أخطأت. وعلى أنه خطأ لم يسؤ وقعه في نفسي. بهذا أعترف. وكانت جالسة ترسم فأغراني هذا بها، فدنوت منها على أطراف أصابعي، ثم وقفت أتأملها — من وراء ظهرها — وهي مقبلة على اللوح. فلما طال ذلك عليّ، وهي لا تلتفت وراءها، تنحنحت، فأدارت وجهها بسرعة وقالت: «أوه!» ولم يكن في وجهها لا ابتسام ولا دهشة، كأنما كان من المألوف عندها أن تسمع الناس يتنحنحون وراءها وهي ترسم!.

فقلت وقد أحسست أن في الفتيات عسراً:

«هل أزعجتك؟»

فقالت وهي ماضية في رسمها وغير ناظرة إليّ:

«أزعجتني؟؟ هل سمعتك تقول إنك أزعجتني؟»

وكانت لهجتها واشية باحتقار يحول الأدب دون ظهوره على وجهها، أو لعل الأصح أن أقول إن في اللهجة تهكما خفيفاً حملته على محمل الاحتقار، فحقدتها عليها — في سري — غير أني لم أظهر ذلك لها واكتفيت بأن أقول:

«هذا ما كنت أخشى — فالحمد لله!»

فمضت في تخطيطها على اللوح وقالت: «إذا كنت تريد أن تتكلم فاجلس». فكانت هذه صدمة ثانية. فتلجلجت قليلاً وقلت «أ... أ... أجلس؟» فقالت وهي مكبة على اللوح «آه.. معذرة.. ثيابك بيضاء نظيفة، والأرض بليلة... مفهوم»

فاجترأت وقلت: «هل تريدين أن تدعيني الى الجلوس؟.»

فقالت: «وماذا أصنع بك جالسا أو واقفاً؟ معذرة! إن غرورك هو الذي أجرى لساني بهذا الكلام»

فسألتها وأنا مبهوت: «غروري؟»

فقالت بلا اضطراب: «أعني غرور الرجال... وكنت تستطيع أن تدرك قصدي ولا تحوجني الى الايضاح»

وكنت في أثناء هذا الحوار لم أبرح مكاني وراءها، فتحولت حتى صرت أمامها وقلت وفي صوتي نبرة غضب مكظوم:

«هل تستطيعين أن تدعى أن بيني وبينك ثأرا قديماً؟»

فأدهشني أنها أجابت ببساطة ومن غير أن ترفع وجهها اليّ:

«ثأر؟ أوه لا!. ولكن ألا ترى أن أمثالك لا خير فيهم لمثلي»

فقلت: «معذرة فاني غير فاهم!.»

قالت: «بالطبع! ولست وحدك الذي لا يفهم... كلكم هكذا.. لأنكم تفكرون بعقول معطلة... أعني أن أهواءكم تغلبكم وتدفع عقولكم في مجراها، وتمنعكم أن تفكروا في حاجات غيركم مثل تفكيركم في حاجاتكم. قد يبدو هذا القول غريباً من فتاة مصرية، لأن الفتاة في نظركم ليست سوى مطية ... لا تستغرب هذه الصراحة، فلستم وحدكم كل من تعلموا وذهبوا الى أوربا ورأوا بعيونهم وفكروا بعقولهم ... ماعلينا من هذا ... نعم الفتاة ليست عندكم سوى مطية ... لا تجادل من فضلك ... لا تحاول أن تكذب ... كلا ... لا تقاطعني ... إنك هنا لتتحكك بي ... هذا واضح ... بالطبع! دعني أتمم كلامي، لقد كنت أقول حين هممتَ بمقاطعتي إنكم معشر الرجال تعتقدون أن الفتاة مطية، وإنها لكذلك؛ ولكنها غير ذلك أيضاً ... إعترف بصراحة ... هل خطر لك مرة واحدة أن الفتاة أكثر من مطية؟!»

تفجأت لأني لم أكن أنتظر أن أسمع هذه المحاضرة، وأورثتني المفاجأة اضطرابا فقلت:

« ولكن هل من موجب لهذا الكلام ؟ ؟ إنى . . . »

فقاطعتنى قائلة « نعم فانك ما جئت إلى هنا إلا وفى أملك أن تقضى دقائق لذيذة مع فتاة ترجو أن تواتيك وأن تنيلك دقائق أخرى ألذ منها وأعذب »

فهممت أن أقاطعها ولكنها أومأت إلى فسكت، واضطجعت هى على الكرسى وقالت :

« لا تكابر . . . واسمع منى ، ولا تعجب إلا إذا كنتَ غبياً . لامانع عندى ألبتة أن أمنحك الدقائق اللذيذة لو كنت تستحقها فى نظرى . . فانى أنا أيضاً أطلب لنفسى دقائق لذيذة وأشتهى أن أتمتع بحياتى وأفوز بنصيبى من لذات الدنيا ، ولكنّ هناك لذائذ أخرى تعدل هذه وتستبد بالنفس وتغلبها على أهوائها الأخرى ... هذا التصوير مثلاً هو مهنة لأكل العيش إلى حد ما ، ولكنه أيضاً فن يزاول لذاته وبغض النظر عن المنافع المادية . . إنى حرة . . فقيرة ، نعم ، ولكنى أجد الكفاية ، وقد استطعت أن أتعلم أرقى تعليم تسمح به مواردى ، والباقى أحصله باجتهادى .. درست التصوير فى انجلترا ثلاث سنوات بينما كنت مبعوثة إليها لأدرس شيئاً آخر ، ولكنى لا أتكسب به . نعم أبيع بعض صورى ، ولكنى أستخدم ثمنها فى إتقان فنى . . فى تجويد أداته . . لقد بعدت عن الموضوع جداً . . . على الأقل فى نظرك . . ولكن هذا الشرح كان لازماً لأمثالك حتى يستطيع أن يجتنب إساءة الظن حين أسأله . . هل تستطيع أن تكون أنموذجاً لصورة ؟ »

فصحت « إيه ؟ أنمو . . . »

قالت مقاطعة « نعم ، أنموذج لصورة . . إن جسمك ليس معتدلاً ، وقوامك . . . غير حسن . . وهذا ليس غزلاً مقلوباً من فضلك .. ولكن لو أمكن أن أرسمك وأنت عار .. ولكن بالطبع لا تستطيع ... كلا ... لا تستطيع ... لا فائدة ... خسارة ... إن فى ذهنى صورة تصلح لها ، ولكن الحياء الكاذب .. كلا .. لا فائدة »

فكدت أجن من جرأة هذه الفتاة ، ثم تصورت نفسى واقفاً أمامها — على رجل واحدة ! . وأنا كما خلقنى الله فقهقهت ، فصعّدت إلىّ طرفها مستغربة مستفهمة ، فلم أكتمها ما دار فى نفسى وتمثل لخاطرى ، ثم تعارفنا .

***

وفى مصر رأيت أباها ، وهو شيخ فى السبعين من عمره ، تخرج فى دار العلوم وزاول التدريس حتى أقعده الكبر ، ولكنه لايزال على ارتفاع سنه نشيطاً . ومن شذوذه أنه لا يقنع بأن ينفى العامية من كلامه ، بل يفرض الكلام بالفصحى حتى على الخدم :

كنت معه يوماً ، وكنا جالسين فى حديقة البيت ، فبصر بالخادم ، فصاح به « ليس هكذا ؟ »

فانتفض الخادم ودار حول نفسه ، وقال بلهجة الممتثل لقضاء الله فيه ولا ستبداد هذا المجنون به :

« أفندم ؟ »

قال الشيخ : « ليس هكذا »

فعاد الخادم يسأل « أفندم ؟ »

فقال الشيخ مفسراً : « أقول ليس هكذا . ارفع رأسك وافتح صدرك . ألم أنهك أن تمشى متخلعاً ؟ »

فقال الخادم معترفاً : « أيوه يا افندم ؟ »

فصاح به الشيخ : « قل نعم يا جاهل ! أو بلى »

فاستغرب الخادم وسأل بلهجة المنكر : « بلى ؟ »

قال الشيخ : « بلى »

فعاد الخادم يسأل : « بلى ؟ »

قال : « نعم بلى ! ماذا تظننى أقول ؟

قال الخادم : « بلى ! »

قال الشيخ : « إذن قلها »

فحاول الخادم أن يعيدها ولكنه نسيها فجعل يقول : « أ.. أ ... , ... , ... وحك رأسه .

فأنكر الشيخ ضعف ذاكرته وقال : « نسيت بسرعة ؟ »

فتذكر الخادم وقال : « أ ... بلى »

فعاد الشيخ يصيح : « مدهش ! قل « لا » فى هذا الوضع »

فظن المسكين أن عليه أن يردد كل ما يسمع فقال : « لا فى هذا الموضع »

فضجر الشيخ وصاح : « ماذا كنت قبل أن تجىء إلى هنا ؟ ببغاء ؟ »

ففكرّ الخادم مسرعاً إلى الأولى استرضاء للشيخ وقال « أ... أ ... بلى »

فيئس الشيخ وقال وهو ينظر إلىّ « لا فائدة ... لا فائدة ! »

وحسب الخادم أن الكلام له فقال : « بلى . »

فصاح الشيخ . « اذهب … اذهب … وارم نفسك فى بئر . »

فظن المسكين أنه يحسن به أن يقول شيئاً آخر فقال :

« لا فى هذا الموضع »

***

هذه هى الأسرة — أو على الأصح ، هذا هو الأب ، وتلك فتاته ، وهما يعيشان فى بيت واحد تحت سقف واحد ، ولا أدرى أيشعران أم لا يشعران بما بينهما من مسافة الزمن التى تحسب بالقرون ، ولكن الذى أدريه أنهما على تباعد عصريهما سعيدان . وقد ساعد على ذلك وأتاحه سعة أفق الفتاة وما تمتاز به الشيخوخة من الحلم والجنوح إلى التسامح ، أو الضعف إذا شئت . . .

ابرهيم عبد القادر المازنى

نبتـــون

للأستاذ راشد رستم

فى ناحية من نواحى الحديقة المنسقة الواسعة ، أنشأوا بحيرة صغيرة صافية ، وحول هذه البحيرة الساكنة قامت الأشجار عظيمة السيقان ، كثيرة الأغصان — تباعدت فى الأرض جذوعها ، والتقت فى السماء فروعها — دوحة خضراء ، نادرة المثال فى هذا النوع من التنسيق والجمال ، اتخذت منها الأطيار الوديعة أراجيحها اللينة ، وأقامت فيها أعشاشها الآمنة .

وفى وسط هذه البحيرة الصغيرة أقاموا تمثالاً كبيراً لإله البحر الأعظم : نبتون [1] بن زُحل . . .

أقاموه فى هذا المكان الهادئ ، واقفاً يحمل فى يمناه صولجانه مثلث الأسنان ، ويمد يسراه فى اطمئنان مشيراً الى الماء الخاضع فى هدوء عند قدميه ، وكأنه يقول : هذا مُلكى ، هذا عرشى !

***

أى نبتون ! مزعزع ركن الثرى [1]

ما كنا لنجهل ملكك ، أو نسلبك عرشك .

رمز لظلمات ذلك الخيال المضطرب لما رآك أجدادنا المتقدمون ؛ ولذلك الرعب الآخذ بنفوسهم لما تركوك الى ربهم ؛ ولذلك التعدى ، وقد جهلوه منك ، عند ما حاولت أن تصل اليهم بمدك ؛ ولذلك الفشل ، وقد تمنوه لك ، لما عدت عنهم خائباً بجزرك .

على أنك لا تزال تطغى ولا ترحم ، وستهشم ما تصل اليه يدك فى غدك ، كما كنت تفعل فى أمسك ، وإن كنت تحوى الدر ، وتؤدى خيراً ، فانك لا تدرى ان هذا خير وذاك در

***

إن هذه البحيرة الصغيرة الهادئة لا تستحق من أهل السلام وأهل الجمال ، أن تقوم أنت وسطها على جزيرة لا تكاد تفى بموطئ قدميك ، تقوم فيها بثقيل هيئتك ، وكالح وجهك وخشن شكلك . وهنالك فى المحيط الواسع جزائر عظمى ، خذها مسكناً ومقيلا ، فعندها تجد لخشونتك مجالاً ، ولوحشيتك ميداناً ، وهنالك حيث أهلها وسكانها أقرب طباعاً لما يرضيك ، فتتخذهم أعواناً أو عبيداً أو خلقاً جديداً ، تسخرهم فيما تشاء من إغراق وإغداق ، وتراهم يرتاحون لجوارك ويحافظون على سلطانك ، وهم يرون فى عتوك وجبروتك حماهم الذى لولاه لكانوا فى الأرض أغناماً لسباعها ، أو أسلاباً لناسها .

***

أىْ نبتون !

تضيع بهجة هذا المكان ، وتذهب وداعة هذه البحيرة ، ما دمت قائماً فيها برمزك هذا الخشن .

وكأنى بصاحب المكان فظاً غليظ الفؤاد ، إذ يجعل جباراً يداعب ضعيف الجناب ! أى ضعف فى الذوق ! وأى خشونة فى

---

(١) إله البحار . نبتون Neptune عند الرومان يقابل فوسيد Poseidon عند اليونان

(١) « مزعزع ركن الثرى » لقب من ألقاب فوسيذ ، جاء فى الالياذة ترجمة البستانى

وكاد العدى يحرزون الظفر	وفوسيذ فيهم يهيج الزمر
فان مزعزع ركن الثرى	لنصرتهم بقواه انبرى

الطباع أشد من أن يقيم المنسق رمزاً للخشونة الواضحة ، والقسوة المتجددة فى المكان الساكن ، ذى الروح الوديعة ، والجو الهادىء . . .

***

كأنى بهذا المنسق ، وقد أقامك بين هدوء المكان وبهجته ، بل وقد حبسك فى هذا القفص الرطب . كأنى به يستهزىء من قوتك ، ويستنزل من شأنك ، فيقيم الرمز الثقيل فى بحيرة صغيرة ، تكاد تكون نقطة من بحرك .

***

أم أن هذا المنسق حكيم بصير ! أراد تغليب صفاتك القاسية على ميزات المكان اللينة ، فيقول للناس بذلك ، وهم وقوف عند البحيرة المسكينة المستسلمة — يقول : أحقاً أيها الناس أرباب العواطف ، أحقاً تشعرون بجمال هذا المكان ووداعته ، وها هو ذا تمثال طاغية يذكركم بأمواج كالجبال ، وطباع كالبحار ، ودخيلة لا أمان لها ؟ أتظنون أن طائر الرحمة والرضا ، يأوى الى القلوب ، وهو يرى رمز القسوة والحماقة قائماً ماثلاً ؟

أتظنون أيها الفنانون أن فى هذا العالم جمالاً صافياً خالياً ؟ جمالا للجمال . . .

***

لا أدرى حقيقة ما يقصد صاحب المكان ، ولكن خطأ ياسادة أن تقيموا هذا الرمز الخشن فى هذه الطبيعة الناعمة . إن من جمال النفس أن تجمع بين الماء والخضرة «والتمثال» الحسن

وإن الذى يأتى الى هــذا المكان الهادىء ، لا يقيم قليلا حتى يمسه تيار قاتم من روح هذا الجبار العتيق يشعر وسط هذا النعيم الأخضر بلفحات من جحيم الحياة القاسية .

***

فياحراس المكان ، وحفظة السلام ، ويا أهل الجمال ، أزيلوا هذا الرمز الخشن ، وردوه الى حيث تتناسق صفاته وقسوة الطبيعة فتكونون قد صنعتم جميلاً ، وأرضيتم أهل الخيال وأهل الحقيقة .

راشد رستم

« حديقة انطونيادس »

اسكندرية



نبتون فى البحيرة — تصوير الأستاذ محمد رفعت

٥ - الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي

المفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية :

الثقة بالنفس والاعتماد عليها :

من العناصر الأساسية فى تقوية الشخصية الثقة بالنفس أولاً ، والاعتماد عليها ثانياً . ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن من الأعمال ، وفى التغلب على صعوبات الحياة . والسبب فى كثرة الاعتماد على الغير أن الغريزة الاجتماعية قوية فى الجنس البشرى متأصلة فيه ، وأننا اعتدنا التفكير الجمعى لا التفكير الاستقلالى . فينبغى أن نعود الأطفال الاعتماد على أنفسهم ، والاستقلال فى تفكيرهم من غير اتكال على أحد ، حتى يستطيعوا فى المستقبل أن يعيشوا معتمدين على أنفسهم . ولا نريد بذلك أن يعتزل الانسان العالم وينقطع عن الناس ، ويفكر فى نفسه فحسب ، فليس هذا من الانسانية فى شىء ، بل إنه باعتزاله غيره يفقد كثيراً ، ولا يربح إلا قليلاً . ولكننا نريد تعويد الأطفال الاستقلال الشخصى والقدرة على القيام بأعباء الحياة من غير اتكال على الغير فى كل شىء ، حتى يمكنهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم ونحو المجتمع . والاعتماد على النفس يتطلب الثقة بالنفس ، والدقة فى العمل ، والتحقق منه ، حتى تكون أحكامنا صائبة ، وأمورنا نافذة ، وأقدامنا ثابتة . أما إذا انتفت الثقة بالنفس أو الدقة فى العمل ، أو التثبت منه ، فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثاً ومن قبيل الأحلام . والرجل الواثق بنفسه ثقة بعيدة عن الغرور والاستبداد ، الواثق بقوله وفعله — يستطيع أن يقف وحده منادياً برأيه مبرهناً على سداده وصوابه . وليس من يستقل برأيه فى أمر من الأمور يكون مخطئاً دائماً ، بل قد يكون مصيباً فى رأيه ، وقد يسبق فى آرائه المجتمع الذى يعيش فيه بعشرات السنين ، كما هى الحال فى المصلحين الذين يكونون غالباً فى واد والمجتمع فى واد آخر ، لا يقدر رأيهم إلا بعد مماتهم . وبالمصلحين الذين يثقون بأنفسهم يحيا المجتمع . وإذا مدحنا الثقة بالنفس فلا نمدح الافراط فيها ؛ لأنه قد يكون علامة على الضعف لا على القوة ، كما لا نمدح ضعف الثقة فانه دليل على ضعف الشخصية .

المزاج :

من العناصر الهامة المؤثرة فى الشخصية : المزاج ؛ فالناس يختلفون فى أمزجتهم كما يختلفون فى شخصيتهم ، فهذا متفائل ، وذاك متشائم ، هذا سريع التأثر ، وذاك بليد لا يكاد يتأثر ، هذا كثير التردد ، وذاك كثير الاقدام . كل له مزاج خاص ، وسلوك يختلف باختلاف ذلك المزاج . ولكن ما السبب فى اختلاف هذه الأمزجة ؟ وللاجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر رأى العلماء قديماً وحديثاً ، حتى تتضح لنا الأسباب التى من أجلها اختلفت الأمزجة فنقول :

إن العلماء قديماً حاولوا تقسيم الأمزجة إلى أربعة أقسام : دموى ، وصفراوى ، وبلغمى ، وسوداوى . وبنوا هذا التقسيم على السوائل والافرازات الجسمية .[1] فالشخص الاجتماعى المتفائل الواثق بنفسه ، الغيور على عمله ، الصافى الذهن ، الحاد الذاكرة ، كانوا يعتبرونه كثير الدم ، وبعبارة أخرى دموى المزاج . والشخص العنيد السريع الانفعال القوى الارادة ، كانوا يقولون إن لديه كمية زائدة من الصفراء ، أو المِرّة ، ويدعونه صفراوى المزاج . والشخص الهادىء ، الذى يغلب عليه الكسل ، وتلوح عليه البلادة ، الذى لا يبالى ولا يكترث كثيراً ولا يتأثر بسهولة ، كانوا يحسبون أن عنده مقداراً زائداً من البلغم ، ويسمونه بلغمياً .

أما الشخص الذى تنتابه الأحزان ، وتلعب به الوساوس ، وتتقاسمه الهموم والمخاوف من غير سبب ولأقل سبب ، فكانوا يخالون أن لديه زيادة فى المِرّة السوداء أو الطحال ، ويعدونه سوداوياً . وقد زاد بعضهم مزاجاً خامساً وهو المزاج العصبى الناشىء من وفرة السائل العصبى .

أما المحدثون من العلماء فيرون أن هذا التعليل قديم ولا قيمة له من الوجهة العلمية ؛ لأنه مبنى على الجهل بعلم وظائف الأعضاء ، وعلى نقص فى المباحث العلمية قديماً . وهم وإن أنكروا هذا

(١) The fluids of the body.

التعليل فى اختلاف الأمزجة لاينكرون اختلافها ، ويسلمون بتعدد أنواعها ، ويعتقدون أن هناك أسباباً أخرى لاختلاف الأمزجة كالوراثة ، والبيئة ، والغذاء ، والمرض ، وضعف الأعصاب ، كما يعتقدون أن إفرازات الغدد لها أثر كبير فى اختلاف الأمزجة ؛ فمزاج الشخص يختلف باختلاف قوة إفراز الغدد أو ضعفه . فلهذه الافرازات تأثير كبير فى الجسم والعقل ، وعنها وعن الأمور السابقة ينشأ الاختلاف فى الأمزجة . فالمزاج فى رأى المحدثين يتأثر بالمواد الكيميائية وإفرازات الغدد المختلفة التى يحملها الدم إلى المخ والعضلات ، لا بوفرة الدم أو الصفراء أو البلغم أو السوداء كما يقول القدامى من العلماء . ومن هذه الغدد :

(١) الغدتان الخاصتان بالكليتين ، ولهما صلة بالانفعالات والعواطف ؛ فاذا كان إفرازهما قوياً كان الشخص سهل التأثر ، سريع الغضب ، وإذا كان إفرازهما ضعيفاً كان حليماً بطىء التأثر قليل الغضب .

(٢) والغدد النكفيّة . وهى غدد صغيرة أسفل العنق ، ولها صلة بالذكاء ؛ فاذا كانت قوية الافراز كان الشخص ذكياً ، وبالعكس . ويرى (مكدُوجل) وهو حجة فى علم النفس أن الضعف العقلى قد ينشأ عن قلة إفراز الغدد النكفية أو عن عدم وجودها .

(٣) وغدة تفاحة آدم ولها صلة بنشاط الشخص ومثابرته على العمل ، وبالتجربة رأى بعض الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء أن للغدد تأثيراً قوياً فى الانسان ، وقالوا — ونرجو أن تثبت التجارب قولهم — إن العمليات الجراحية يمكن أن تنظم إفراز غدتى الكليتين ، وتغيير سلوك الشخص وطباعه . وإذا ثبت أن للغدد تأثيراً كبيراً فى ذكاء الشخص ومزاجه فينبغى التفكير فى معالجة الضعف العقلى ، وحدة الطبع من الوجهتين الطبية والنفسية معاً .

ومجمل القول أن الشخصية القوية يجب أن تتحقق فيها العناصر الآتية :

(١) الجاذبية ، (٢) النشاط العقلى أو الذكاء ، (٣) المشاركة الوجدانية ، (٤) الشجاعة ، (٥) الحكمة ، (٦) التفاؤل ، (٧) التواضع وعدم التصنع ، (٨) حسن مظهر الانسان وقوامه ، (٩) قوة البيان ، (١٠) الثقة بالنفس والاعتماد عليها ، (١١) اعتدال المزاج .

وهناك صفات أخرى كثيرة لا بد منها فى الشخصية سنتكلم عنها فيما بعد عند التكلم على أنواع الشخصية والصفات الكمالية لها . ولكن العناصر المذكورة هى الأساسية فى تقوية الشخصية الضرورية للنجاح فى الحياة .

يتبع — محمد عطيه الابراشى

بين فن التاريخ وفن الحرب

٤ ـ خالد بن الوليــد *

فى حروب الردة

للفريق طــه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

الحركات الأولية :

والواضح من أخبار الرواة أن مناوشات طفيفة وقعت قبل أن يتسلم خالد بن الوليد قيادة الجيش للقضاء على أهل الردة فى بلاد نجد .

والظاهر أن الرواة لم يتفقوا على أخبار هذه المناوشات جرياً على عادتهم ، والروايات المنتهية إلى سيف بن عمر وهو الراوى الذى يستند اليه الطبرى فى ذكر الكثير من أخباره تبحث فى قتال عنيف وقع بين المسلمين وأهل الردة قبل أن يزحف خالد بجيشه الى طليحة بن خويلد الأسدى فى بزاخة . أما الأخبار التى يرويها الواقدى والبلاذرى فتذكر قتالاً طفيفاً جرى فى ذى القصة أو البقعاء بين مقدمة المسلمين وعبس وذبيان انتهى بهزيمة المرتدين بعد أن رأوا أن كوكب (القسم الأكبر) جيش المسلمين وصل لنجدة المقدمة ، وأن قسما من هذا الجيش طاردهم الى ثنايا العوسجة ، ولما لم يلحق بهم عاد الى المعسكر .

ولم يتفق الرواة على هذا القتال أجرى قبل عودة جيش أسامة بن زيد أم بعد عودته من بلاد الشام .

ومن الأخبار ما تروى أن كبار الصحابة أشاوروا على أبى بكر ألا يرسل جيش أسامة بعد أن وردت الأخبار بارتداد العرب ، إلا أن أبا بكر لم يقدم على تغيير ما أمره الرسول به فى حياته .

والذى اتفق عليه الرواة أن جيش أسامة لم يغب عن المدينة أكثر من شهرين ، وكان الجيش متجمعاً فى الجرف فى شمال المدينة لما توفى الرسول . ومع أن أكثر الرواة يزعم أن أخبار الارتداد فى الشرق وفى الشمال وفى الجنوب الشرقى وردت قبل حركة جيش أسامة — وذلك ما جعل كبار الصحابة يشيرون على الخليفة بابقاء الجيش ليعتز المسلمون به فى محاربتهم أهل الردة — إلا أن الواقع لا يؤيد ذلك ، إذ لا يعقل أن يصل نعى النبى الى بلاد عمان والبحرين فيرتد أهلها ويصل ذلك النعى الى المدينة وجيش أسامة قاعد لا يحرك ساكناً . وإذا كان الخليفة يريد أن ينفذ أوامر الرسول فلماذا يؤخر حركة هذا الجيش طول هذه المدة ؟ وتدل الأنباء على أن أول من أنبأ بالارتداد عامل مكة وأعقبه عامل الطائف بالخبر ، ثم ورد عمرو بن العاص الى المدينة بخبر ارتداد أهل عمان والبحرين ونجد ، وكان الرسول بعد حجة الوداع قد أوفده الى عمان ، فلما بلغه نعى النبى قفل راجعاً الى المدينة وأخبر بوضوح أن العرب ارتدت من دبا الى المدينة ، والمدة التى تصل فيها أخبار الوفاة الى عمان ليست قصيرة ، كما أن السفر من عمان الى المدينة أيضاً يتطلب عدة أيام ، لأن المسافة بين عمان والمدينة ١٢٥٠ ميلا (أعنى مسيرة أكثر من عشرين يوماً على الذلول)

ومن الواضح أن كبار الصحابة لم يرتأوا إبقاء جيش أسامة بمجرد رؤيتهم قبائل فزارة وغطفان يرتدون ، والأمر الذى لا شك فيه أن خبر امتناع بعض القبائل العربية القريبة من المدينة عن تأدية الزكاة وردت الى المدينة قبل حركة جيش أسامة .

وإذا صح ادعاء الرواة بأن خبر ارتداد العرب فى أقصى البلاد ورد الى أبى بكر فأطلعه على حرج الموقف قبل سفر جيش أسامة ، فيكون الخليفة قد جازف مجازفة خطيرة ، بايفاده الجيش شمالا بينما كان الخطر يهدد المسلمين فى عقر دارهم .

ومن الرواة من يزعم أن أبا بكر شرع فى قتال أهل الردة بعد عودة جيش أسامة ، ومنهم من يدعى أن قتال ذى القصة والربذة جرى قبل عودة الجيش .

أما نحن فنميل الى الاعتقاد أن القتال وقع قبل عودة الجيش ، إذ لا يعقل أن تتواطأ غطفان على الهجوم على المدينة ، وتعلم بأن

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

جيش أسامة مرابط فى شمالها . بينما الروايات التى يستند اليها الواقدى والبلاذرى تدل على أن قوة المسلمين كانت ضعيفة فى ذلك القتال .

الشروع فى العصيان :

أول من شرع فى العصيان خارجة بن حصن الفزارى من رؤساء بنى فزارة ، إذ أنه أوقف جابى الزكاة فى طريقه إلى المدينة وأخذ منه مافى يده فرده على بنى فزارة ورجع الجابى إلى أبى بكر .

أما القبائل التى ثارت وتظاهرت بالعداء فهى : بنو أسد وغطفان والبعض من بطون طىء ، فاجتمع بنو أسد فى سميراء ، وعلى رأسهم طليحة بن خويلد ، واجتمعت فزارة فى جنوبى طيبة ، واجتمعت عبس وذبيان فى الربذة والتف حولهم جماعة من كنانة ، ولما كثر عددهم لم تحملهم البلاد لأن المياه شحيحة والمرعى قليل فتفرقوا إلى فرقتين ، فأقامت فرقه بالأبرق بالقرب من الربذة والأخرى فى ذى القصة ، وأمد طليحة فرقة ذى القصة بقوة من بنى أسد . والداعى الى تفرقهم هو أن الوقت كان صيفاً ، لأن الرسول توفى فى شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة . وهذا التاريخ يوافق شهر حزيران سنة ٦٣٢ ميلادية . والمياه على ما نعلم تشح فى الصيف ، وكذلك المرعى تقل حينئذ . فبعثت غطفان وفداً الى المدينة ليعرض على أبى بكر رغبتها فى أن تقيم الصلاة وألا تأتى الزكاة ، وكان عيينة بن حصن الفزاوى وأقرع ابن حابس فى الوفد .

فلم يلب أبو بكر طلبهم برغم إشارة بعض الصحابة عليه بالتساهل معهم الى أن يعود جيش أسامة ، إلا أنه فى الوقت نفسه قدر خطورة الموقف لما عاد الوفد الى أهله . وكان للوفد على ما يظهر مهمتان : عفو الزكاة ، والاطلاع على قوة المسلمين فى المدينة . وقد لاحظ أبو بكر ذلك ، إذ لم يعد الوفد حتى جمع الصحابة وأطلعهم على حرج الموقف وكلفهم بحراسة المدينة ليلاً ونهاراً . فأقام رجالا فى الأبراج لمراقبة الطرق الممتدة الى المدينة من جهة البادية ، ورتب قوة احتياطية فى المسجد لتكون على استعداد للنجدة عند الحاجة ، وحذر أهل المدينة بقوله « انكم لاتدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً وأدناهم منكم على بريد » يشير بذلك الى قرب المسافة بين المدينة والقبائل المتحفزة للهجوم .

وقد يُعجب الانسان بصلابة أبى بكر فى رفضه طلب الوفد بعد اطلاعه على أخبار عماله لدى القبائل وسماعه حديث عمرو ابن العاص . وكانت جميعها تنبىء بارتداد العرب عامة أو خاصة ولا يوجد فى المدينة سوى نفر قليل وجيش أسامة بعيد عنها .

ونظراً الى ما ذكره الواقدى فى كتاب الردة أن أبا بكر لم يكتف بالتدابير التى اتخذها فى المدينة ، بل طلب من القبائل العربية كأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب أن تمد بالرجال فأسرعت الى نجدته . فأخذ الناس يتوافدون الى المدينة بسلاحهم ، وأرسلت جهينة أربعمائة راكب .

وإذا صدقنا رواية سيف بن عمر التى نقلها الطبرى ، ظهر لنا أن ظن أبى بكر كان فى محله ، إذ لم تمض ثلاثة أيام على عودة الوفد حتى كان المرتدون قد غزوا المدينة ليلا .

لابد أن الوفد بعد عودته أخبر القبائل المتحفزة للهجوم عن ضعف قوة المسلمين بالمدينة وشجعها على الهجوم وكانت من غطفان ، وهى عبس وذبيان وفزارة على ما نعلم .

المواقع التى جرى القتال فيها :

وردت أسماء السميراء والربذة وطيبة والأبرق وذى القصة عند البحث فى تجمع القبائل . ولا يوجد الآن من هذه الأسماء فى الخرائط الحالية الا السميراء . ولنا من الأخبار التى نستقيها من رواة العرب الأقدمين أن القبائل الساكنة فى شرق المدينة وعلى طرفى الطرق الذاهبة الى العراق وخليج فارس هى بنو سليم وهى أقربها الى المدينة فى الشمال الشرقى ، ثم يليها بنو كلاب الى شمالى بنى سليم ، ثم عبس وذبيان فى شرق حرة خيبر الى الشمال .

أما قبائل طىء فتسكن فى جبليها أجأ وسلمى ، وفى شرق بنى عبس وذبيان وفزارة من غطفان فى وسط وادى الرمة وعلى جانبيه . وتأتى بعدها قبائل بنى أسد . وموقع سميراء على ما يظهر من الخريطة واقع الى شمالى وادى الرمة ، ويبدأ منه وادى السميراء الذى يصب فى الوادى فى جوار الحاجر .

الربذة :

يذكر ياقوت الحموى أن موقع الربذة على الطريق التى تصل موقع فيد بالمدينة . وفيد فى حى طىء وهى قرية من قرى جبل شمر واقعة الى شرق جبل سلمى على الطريق التى تصل الكوفة بالمدينة

ويمر بها طريق الحج ، وهى بعيدة عن المدينة مسافة ست مراحل . وتلتقى فيها عدة طرق من الجوف والعراق والمدينة وبريدة والرس .

والربذة على هذه الطريق ، وهى تبعد عن المدينة اربعة وعشرين فرسخاً ، وواقعة الى شمالى شرقها ، ولعل موقع حناكية الحالى هو موقع الربذة القديم او قريب منه ، لأن بُعده عن المدينة زهاء ثمانين ميلاً . والفرسخ العربى طوله اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر أوأربعة كيلومترات . والذى يجعلنا نميل الى ذلك ان القوة لم تجتمع فى الربذة بل فى الابارق ، وكلمة ابارق اسم خاص لبعض المحلات تدل على أرض حجرية ورملية مختلطة .

وموقع الحناكية بالقرب من حدود حرة خيبر ، والحرة على ما نعلم ارض بركانية خامدة وفيها محلات يتراكم الماء فيها . ومادامت القبائل مجتمعة فيها فلا بد حينئذٍ من وجود الماء بها . والحناكية واقعة فى بطن وادى الحمض .

ذو القصة أو البقعاء : والظاهر أن كلتيهما تدلان على موقع واحد واقع فى شرق المدينة وقريب منها ، وهو بلا شك على الطريق التى تمتد الى المدينة فى غربى الربذة او فى جنوبها ، وهو اما الشقرة او سابية .

والأخبار تدل على أن أبا بكر بعد أن هزم المرتدين فى البقعاء طاردهم بخيله الى ثنايا العوسجة بالقرب من الركبة ، وهذا الموقع الاخير واد يصب فى الرمة ، ولعله وادى الركب الذى ينبع من حرة خيبر ويجرى شمالا فى شرق وثنايا العوسجة فى المحل الضيق الذى يتسلق فيه الطريق صاعداً الى رأس الوادى او ينزل منحدراً منه .

أما موقع طية الذى اجتمع فيه غطفان وفزارة فلم نعثر عليه فى معجم البلدان ولعله فى شرقى الربذة أو فى شماليه . أو انه موقع طابة فى سفح جبل سلمى الجنوبى فى شمالى السميراء وهو من ديار غوث من طىء .

مباغتة المدينة :

لم يهجم المرتدون بكل قوتهم لانهم أرادوا أن يكونوا خفافاً فتركوا قسما منهم فى ذى حسى بين ذى القصة والمدينة ليكون ردءاً لهم ، واقتربوا ليلا من المدينة ولم يباغتوها لأن العيون اخبرت المسلمين بدنوهم ، فقاتلتهم الربايا الخارجية ، وأسرع ابو بكر بمن فى المسجد فأنجد الربيئات وهزم الهاجمين ، ولم يكتف بذلك بل هاجمهم على الجمال التى تستقى الماء من الآبار لأسقاء مزارع المدينة ، الى أن نفرت الابل من الجلود المنفوخة التى دهدهها الفارون من أعلى الروابى ، فرجعت على أعقابها نافرة حتى دخلت المدينة .

والظاهر أن الهاجمين لم يكونوا فى قوة كبيرة ، ولا سيما بعد أن تركوا قسماً منهم فى الخلف . ويظهر أنهم من بنى عبس وذبيان . أما فزارة فبقيت فى ذى القصة . وهكذا انقسمت القوة التى أرادت أن تهاجم المدينة الى ثلاثة أقسام : قسم فى ذى القصة وقسم فى ذى حسى ، والقسم الثالث أغار على المدينة . أما قوة المسلمين فلا شك فى أنها كانت ضعيفة ، ولعلها لم تزد على المائتين .

وتشجع المرتدون من فرار جمال المسلمين وظنوا بهم الوهن ، وبعثوا الى من بذى القصة بالخبر فلحقوا بهم .

يتبع — ط الهاشمى

في الأدب الدرامي

١١ - الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر ملاهي موليير

(البخيل L' avare)

موضوعها وصف البخيل، وأهم أشخاصها: أرباجون البخيل أبو كليانت وإيليز وعاشق مريان، وكليانت بن أرباجون وحبيب مريان، وإيليز بنت أرباجون وحبيبة ڤالير بن أنْسِلم، ومريان بنت أنْسلم وحبيبة كليانت ومحبوبة أرباجون، وأنسلم أحد الأغنياء وأبو ڤالير ومريان، ومترچاك طباخ البخيل وسائقه، وفرسين امرأة محتالة، ولافيش خادم كليانت، وسيمون سمسار. وقد وقعت حوادثها في بيت أرباجون بباريس.

الفصل الأول: (كنز أرباجون ومشروع زواجه) يتنكر ڤالير حبيب إيليز، ويقيمه البخيل وكيلاً على بيته، فيعلن إلى ابنته غرامه، ويشكو إليها بَثّه، فتعده بالزواج. ويدخل كليانت فيفضي إلى أخته بحبه لفتاة فقيرة شريفة تدعى مريان. ويشكو إليها عجزه عن مساعدتها لبخل أبيه، فهو يبحث عن مرابٍ يقترض منه ما يصلح به حالها. ثم يدخل أرباجون البخيل وهو يشاجر خادمه (لافيش) في عنف ويتهمه بالسرقة، فيقرره ويعزره ويبحث في جيبه ومطاوي ثوبه ثم يطرده، وهو لا يتحرج أن يعامل ولديه معاملة العدو، ويتهمهما بالتبذير. وحينما يريد الولدان أن ينبئاه بمشروع زواجيهما يفاجئهما هو بأنه عقد العزم على الزواج من مريان، وأنه فكر في مستقبل ولديه فخطب لكليانت أرملة غنية، ولإيليز أنسلم المثري، لأنه قبل أن يتزوج منها من غير مهر تسوقه اليه. ثم هو لا يقبل جدلاً ولا يريد مشورة. ويدخل ڤالير فيتخذونه في الموضوع حكما.

الفصل الثاني: (ربا أرباجون) يريد كليانت أن يقترض خمسة عشر ألف فرنك فيجدها له السمسار سيمون بشروط فادحة وربح خمسة وعشرين في المائة. ويقبض منها كليانت اثنى عشر ألف فرنك عينا، ثم يأخذ باقيها مجموعة من الأثاث البالي. على أن أغرب ما في المسألة أن السمسار يطلب هذا القرض من أرباجون، فيقف الابن أمام الأب موقفاً غريباً يتبادلان فيه ألفاظ التقريع على بخل أحدهما وتبذير الآخر، فلا يخرجهما من هذا الموقف الحرج إلا دخول (فرسين) المحتالة تعلن إلى أرباجون أن أم مريان قبلت أن تزوجه من ابنتها، وهي تطلب منه مقداراً من المال يسيراً تستعين به على كسب قضية لها في المحكمة، فيبادر إلى الخروج قائلاً: آه! إن أحد الناس يدعوني . . .

الفصل الثالث: (إعداد المأدبة) دعا أرباجون أنسلم وابنته مريان إلى العشاء. فهو يوزع العمل على خدمه: فيأمر كلود أن تنظف البيت، ويحذرها أن تحك الأثاث بقوة مخافة أن يبلى، ويخصص (براندافوان) (والامرلوش) للشراب، وينهاهما أن يقدماه إلا إلى من به ظمأ شديد، ويوكل إيليز بملاحظة المائدة، ويأمر الطاهي چاك أن يهيء الطعام بثمن زهيد. ولكن المترچاك يؤدي عمل الطاهي وعمل الحوذي معاً، فهو باعتباره الأول يطلب مالاً كثيراً، فيغضب أرباجون ويرشده إلى صنع المآكل التي تصد النفس وتميت الشهوة، ويرفض باعتباره الثاني أن يشد الخيل إلى العربة، لأن الجوع قد أضناها والتعب قد أنهكها، ويلوم سيده على شحه القبيح فينهال عليه البخيل ضرباً بهراوته.

الفصل الرابع: (سرقة الكنز) يعثر الخادم (لافيش) على كنز سيده البخيل مدفوناً في الحديقة فيأتي به الى كليانت. ويحاول الابن أن يحول بين الأب وبين زواجه من مريان، فيرميها عنده بالخلاعة والجفاء والغباوة؛ ويرتاب الأب في نصيحة ابنه، فيتظاهر بأنه يريد أن يزوجه منها حتى يحمله على الاقرار بحبه إياها؛ فتثور ثائرة البخيل، ويُلَوح له بالعصا، ويحاول أن يصده عن حبها فيأبى كليانت فيخرجه الأب من ميراثه ويلعنه، ثم يفتقد الكنز فلا يجده، فينسى مشروعاته الجميلة، ويصيح بملء صوته: يالى من اللص! يالى من القاتل! يالى من السفاك! ثم يفزع الى القضاء يريد أن يشنق كل الناس، حتى اذا لم يجد كنزه شنق نفسه. وهذا الموقف من أبدع مواقف الرواية.

الفصل الخامس: (وجود الكنز): يحضر رجال الشرطة فيسألون (الأسطا چاك) فيتهم الوكيل ڤالير. ويدخل الوكيل فيشهر به أرباجون ويقول له: أريد أن تخبرني عن المكان الذي خطفتها منه، فيظن ڤالير أنه يكلمه عن إيليز فيجيبه: إني لم أخطفها، ولا تزال عندك في منزلك. ويستمر هذا الخطأ بينهما طويلاً، ثم ينتهي بأن يبوح ڤالير بحبه إيليز، ويدخل حينئذ أنسلم فيعرف ابنه ڤالير وابنته مريان، وقد فقدهما منذ ست

عشرة سنة . ثم يقترح أن يتزوج ڤالير من ابليز وكليانت من مريان ، فيقبل البخيل على شرط أن يردوا اليه كنزه ، وألا يغرم صداقاً الى ولديه ، وأن يفصلوا له ثوباً جديداً يوم الزفاف . وتنتهي الملهاة بقول ارباجون : ولنذهب لنرى كنزي العزيز ! هذه الملهاة متقنة محكمة ، لحركة العمل فيها سريعة قوية ، والأخلاق تبدو ظاهرة جلية ، والحوار طبيعي حي يملك الذهن ويسترعى الاسماع . ولكنهم يأخذون عليها أن الموضوع محزن وأن الحل ضعيف .

النساء العالمات (Les femmes savantes)

موضوعها تحذلق النساء وتركهن تدبير البيت ، واشتغالهن بالفلسفة والحساب والفلك . وأهم أشخاصها : كريزال وزوجته فيلامنت ، وابنتاه ارماند وهنرييت ، وأخوه أريست وأخته بيليز وخادمته مارتين ، ثم كليتاندر حبيب هنرييت وتريسوتين أحد الأذكياء ، وڤاديوس أحد العلماء . وقد وقعت حوادثها فى منزل كريزال بباريس .

الفصل الأول : هنرييت ترغب فى الزواج من كليتاندر ، ولكن أختها أرماند المتحذلقة تنصح لها أن ترفض هذا الزواج وتعكف على دراسة العلم فان ذلك أخلق بالمرأة اللبقة الذكية ، وتضرب لها المثل بأمها وخولها فى الأندية والمجامع لجهلها ، فتتهمها هنرييت بالغيرة وتناقشها فى الموضوع بحضرة كليتاندر ، فيفصل فى هذه المسألة بتصريحه أن الدكاترة من النساء لا يلائمن ذوقه ، وانه يفضل أن تكون المرأة مستنيرة فاهمة ، لا متشدقة عالمة . هو إذن يختار هنرييت ، ولكنه لايجرؤ على مكاشفة أمها فيلامنت بحبه ، لأنها مولعة بالمدعى تريسوتين ، وهو يحتقره لادعائه وحذلقته . وتدخل بيليز فيستميلها اليه ويصارحها بأمره ، فتظن أن هذا الحب لها لا لغيرها .

الفصل الثانى : يأخذ على نفسه اريست أخو كريزال أن يخطب هنرييت لكليتاندر ، فهو يقول لأخيه : إن كليتاندر فقير من المال ولكنه غنى بالفضيلة . فيجيبه كريزال الى طلبه ، ثم يذهب الى زوجته يقنعها به . وفى تلك الساعة تطرد فيلامنت خادمتها مارتين ، لا لأنها كسرت وعاء أو سرقت إناء ، ولكن لأنها أهانت النحو والقواعد . ويضعف كريزال أمام امرأته فيقر هذا الطرد ، ولكنه يسخط كل السخط على حمق النساء العالمات ، ويختصر شكواه فى هذا البيت الجميل :

انني أعيش بالحساء الجيد ، لا بالانشاء البليغ !

فاذا ما كلما فى زواج هنرييت من كليتاندر تأبى الأباء كله ، وتعلن اليه أنها ستزوجها من الشاعر الأديب تريسوتين . ويحرض أريست أخاه على المقاومة حتى يرفع عن كاهله نير هذا الظلم الفادح

الفصل الثالث : يقرأ تريسوتين للعالمات فيلامنت وأرمان وبيليز موشحا وأهجية من نظم الأميرة (أورانى) فيملك عليهن حواسهن وأنفاسهن ، إلا هنرييت فتظل فارغة البال من كل ذلك . لم يكتب هؤلاء المتحذلقات شيئاً ، ولكنهن يردن أن يتعمقن فى العلوم ، وينشئن أكاديمية لهن كأكاديمية الرجال . ويقبل المتفيهق ڤاديوس فيصفه تريسوتين للنسوة بأنه أعلم الفرنسيين باللغة اليونانية ، وأبرع الأدباء فى صناعتى النظم والنثر . ويبادله المتحذلقات صنوف التحية وضروب التعظيم ، ثم ينتقد ڤاديوس موشح الأميرة (أورانى) ، دون أن يعلم أنه من نظم تريسوتين ، فيتخاصم الرجلان ويتسابان بأفحش السباب . ويخرج ڤاديوس محنقاً يتحدى خصمه بقوله : (إنى أدعوك لمساجلتى فى النظم والنثر واللاتينية واليونانية) . وتعزى فيلامنت صديقها تريسوتين عن هذه الفضيحة بأن تقدم إليه ابنتها هنرييت لتكون له زوجة ، ويصر كريزال على أن يزوج ابنته من كليتاندر .

الفصل الرابع : تتلهب فيلامنت من الغيظ ، فتقسم أن تقطع زوجها عن عزمه ، وتنفذ إرادتها على هنرييت ، ويلقى إليهما فى تلك الساعة كتاب من ڤاديوس يتهم فيه تريسوتين بالنفاق والطمع فى ثروة هنرييت ، فلا يضعضع ذلك من عزم فيلامنت فتبعث فى طلب المأذون (المسجل) ، ولكن كريزال يصمم على رأيه فلا يتقهقر

الفصل الخامس : تسخر هنرييت من تريسوتين ، وتريده على أن يرفض زواجها ، وأبوها يرغى ويزبد موغر الصدر على أمها ، ويقول إنى أريد أن أعلمها كيف تعيش ، ولقد أرجعت مارتين إلى الخدمة على الرغم منها . وتدخل حينئذ فيلامنت وفى أثرها المأذون وتريسوتين ، ويصل الأمر فى العقد إلى تسمية الزوج فتقول الأم : تريسوتين . ويقول الأب : كليتاندر . فتغضب فيلامنت وتنتصر الخادم مارتين لسيدها فلا تزداد السيدة إلا عتواً وإصراراً . ويوشك كريزال أن يسلم الأمر إلى امرأته لولا أن يدخل أخوه أريست ، فيخبرهم بالكذب أن أسرتهم قد أفلست لخسرانها قضية كبيرة . فلم يكد يسمع تريسوتين النبأ حتى يدير لهم ظهره ويخرج فيظهر نفاقه وأثرته ، وينتهى الأمر بانتصار كريزال وتحقيق أمل كليتاندر .

يتبع

(الزيات)

الى الفردوسى

أتينا محتفلين

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

« ذهب شاعر الفراتين ممثلا للأدب العراقى فى الاحتفال الالفى بالفردوسى ، فألقى على قبر الشاعر الخالد هذه القصيدة الخالدة »

١

أنت فى شعرٍ كان فتحاً مبينا — واحدٌ من أولئك الخالدينا
بعد ألفٍ من السنين أتينا — بك يا فردوسىُّ محتفلينا
والى قبرك الذى فيه تغفو — نحمل الوردَ الغضَّ والياسمينا
ولو ان الإحداث ألفى مساغا — جعل القوم حجَّ قبرك دينا
لك فى تأريخ الملوك كتابٌ — يحمل الوحىَ والهدى واليقينا
قمتَ فى نظمه ثلاثين عاما — ثم لم تسأم طولَ تلك السنينا
حزتَ حينا تجِلَّةً واحتراما — وتألمتَ للمصائب حينا

٢

شاعرٌ أنت جامعٌ للمزايا — خالدٌ لا تدنو اليك المنايا
أنت فى دولة البيان بحقٍ — ملكٌ ذو عرشٍ ونحن الرعايا
جاء ماقد نظمتَه من كتاب — تحفةً فارسيةً للبرايا
ولقدأهديتَ الكتاب الى مَن — لم يكن ذا علم بقدر الهدايا
وألمَّت بك الرزايا ولكن — أنت ما كنتَ عابئاً بالرزايا
يا إمام القريض بعدك فينا — نفد الشعرُ الجزل إلا بقايا
قد طلبنا التحرير للشعر حتى — كثرت فى الطِلاب منا الضحايا

٣

إن ما قد قصصتَه من حروب — سوف يبقى تأثيره فى القلوب
أنت شمسٌ لها البيان شعاعٌ — لم تمل فى طريقها للغروب
ما الإلياذةَ التى حبَّرتها — يدُ هوميرَ مثلُ ذا الأسلوب
تلك ليلٌ جهمٌ وهذا صباحٌ — مُسفِرٌ ما بوجهه من شحوب
كنتَ تمشى الى الامام حثيثا — بخطىً لم تخلق لغير الوثوب
يهتف اليوم الوافدون من الأقطار أفواجاً باسمك المحبوب
جلَّ ما قد نظمتَه فى مزايا — الفارسيين عن جميع العيوب

٤

أنت فى شعرك البليغ امام — فسلام عليك ثم سلام
حبذا ما نظمتَه من كتاب — أكبرته الشعوب والأقوام
أنت للشرق شاعرٌ عبقرىٌّ — تتغذّى بقوله الافهام
«لستُ أدرى وليتنى كنتُ أدرى» — أهو السحر أم هو الالهام
كنتَ للناس كوكباً ذا بهاء — أينما ألقى النورَ زال الظلام
فى رياض الآداب غرسُك يحكى — شجراً من أثماره الآلام
حُلُماً كان ما أملتَ ولكن — بعد ألفٍ قد صحّت الأحلام

٥

أنت يامَن بهرتَ بالشعر عينى — شاعرُ المشرقين والمغربين
أنت لو تُمسِك الثريا بأيدٍ — شعراءٌ ، أمسكتَها باليدين
أنت مما تشعّه من ضياء — يملأ العين ، ثالثُ القمرين
ما كتاب الملوك إلاّ بلاغ — من أبي قاسمٍ الى المَلَوَين
كلما جئتُ منه أقرأ فصلا — أسبلت عينى فوقه دمعتين
تحفةٌ من بلاغة وشعورٍ — قد جلَتْ مابخاطرى من رَيْن
جمعت بعد أن مضى ألفُ عامٍ — بينه لُحمةُ القريض وبينى

٦

إن ما ناله الردى من حياتك — لم ينله العجز من كلماتك
أنت فى شعرك البليغ نبىٌّ — وكتابُ الملوك من معجزاتك
لك فيه بلاغة أدهشتنا — أىّ روحٍ نفختَ فى أبياتك
كُلُّ ما كنا قد نظمناه قبلاً — نظرةٌ فى الحياة من نظراتك
كل ما عندنا من النظم والنثـ — ـر قبسناه من سنا آياتك
كل ما قد قلناه فى هذه الذكـ — ـرى ثناءٌ عليك بعضُ صفاتك
قيل لى أنت فى حفيرٍ ولكن — لم أجد فى الحفير غيرَ رفاتك

٧

قصّرت فى تقديرك الآباء — فتلافت ما فاتها الأبناء
بعد ألفٍ من السنين أقامت — لك نيروزاً امةٌ شمّاء
لك يا حجّة البلاغة شعرٌ — عجزت عن تقليده الشعراء
بمصابيح شعرك ازدانت الأر — ضُ كما ازدانت بالنجوم السماء
نمّقته يراعةٌ ذات حَوْلٍ — وبه لوّحت يدٌ بيضاء
واذا ضيم الشاعر الحرّ يوماً — فى بلاد جلاه عنها الإباء
بعد آمال كنّ فيك خيالاً — فاجأتك الحقيقة السوداء

٨

يا كتاب الملوك أنت كتابٌ   فيه للناس حكمةٌ وصواب
خلق الفردوسىُّ منك خِضمّاً   فاض يزغو كما يفيض العُباب
بك للشرق ما اهتدى الشرق فخرٌ   بك للغرب ما ارتقى إعجاب
بك فى أمةٍ قد ازدادت الأخـ   ـلاق طيبا وازدانت الآداب
معجزاتٌ وراءها معجزاتٌ   آمنت إعجابا بها الالباب
إنما فى الشعر الحقيقةُ أصلٌ   والخيالات كلها أثواب
وإذا أنكرَ النبوغَ على الشر   ق فريقٌ فأنت أنت الجواب

٩

الذى لم يتم به الغزنوىُّ   قام مستوفيا به البهلوىّ
مَلِكٌ من ارقى الملوك عظيم   لاسمه فى سمع الزمان دوىّ
ملكٌ بالسياستين خبير   وله فيهما الطريق السوىّ
أخضع الأمةَ العظيمة بالحسـ   ـنى فلله عطفهُ الأبوىّ
وإذا قوّة الارادة جلّت   جلّ فيهم تأثيرها المعنوىّ
والذى لا يرى الحقيقة أعمى   والذى ينكر الرشاد غوىّ
انما اليوم ليس يصلح للمُلْـ   ـك على وجه الأرض إلا القوىّ

١٠

إنك السيف فى يدِ الأيام   قد نضته للحرب أو للسلام
حاقنا للدماء بالمثل منها   فى صدام الأقوام بالأقوام
فى يديك القوتين إذا الأمـ   ـرُ دعا حقٌّ النقض والابرام
وإذا ما بدأتَ يوما باصلا   حٍ جديد فالبدء للاتمام
حبذا إيرانٌ وعمرانُ ايرا   نَ وما فى بلادها من نظام
ولقد سرّنى كما سرّ غيرى   ما بها من نزاهة الاحكام
زرتُ بالأمس الروضَ أمتِع عينى   وإذا الورد فيه ذو أكمام

١١

أهلُ إيرانَ والحديث شجونُ   أمةٌ ما بها يليق السكون
شأنها فى التاريخ أكبرُ شأن   حبذا فى التاريخ تلك الشؤون
وعلى عين الشرق رانَ رقادٌ   دونه فى غير الرجاء المنون
ثم أنحى ينبّه الشرق منه   مَلِكٌ حدُّ سيفه مسنون
إنه لما قام للمجد يدعو   شخصت عن بعدٍ اليه العيون
طار بالشعب كله للثريا   صاعداً لو يكون مالا يكون
سيعود المجد القديم لإيرا   نَ فتقضى الى اليقين الظنون

١٢

أيها الشعر إنك ابن شعورى   تغتذى من كآبتى وسرورى
حاملاً ضحكةَ الذى عيشه كا   نَ رغيداً أو دمعةَ الموتور
سالما من ضعفٍ يريبك منه   خاليا من زوائد وقشور
ليس شعراً ما ليس فيه شعورٌ   لا يهيج الشعورَ غيرُ الشعور
وإذا الشعر لم تهزّك منه   روعةٌ فهو جامدٌ كالقبور
إنما الشاعر الموفق يمشى   من خلودٍ على رقاب الدهور
مُعجَبٌ بالهزار كلُّ بنى الأر   ض وان لم يكن سوى عصفور

جميل صدقى الزهاوى

شوقى أيضا

قطعة كتبها الأستاذ البشرى صدراً لحديثه فى الراديو عن ذكرى شوقى ، ثم بدا له أن يرتجل .

سيداتى سادتى :

فى مثل هذا اليوم من عامين مضيا أذّن مؤذن أن البلبل قد سكت بعد طول سجعه وتغريده ، وأن الزهر قد ذبل بعد إشراقه وتوريده ، وأن النجم قد هوى فلم يعد يتألق ، وأن الغدير قد غاض وهيهات له بعد الآن أن يترقرق .

مات شوقى ، ولو كان شوقى كسائر الناس ما كان لموته جليلُ خطر . ولرب رجل يموت فلا يفرق المجموع بين موته وحياته . ولـكن موت شوقى شىء آخر : أرأيتَ الى النهر اذا يَبِس ، والى المطر حين يحتبس ؟ وارحمتا للسارين اذا لحق النجمَ الغروب ، وقد تشعبت الطرق واختلفت رءوس الدروب !

لقد كان شوقى نعمةً من النعم العامة التى تفضّل الله بها على هذه البلاد ، بل التى تفضل بها على أبناء العربية جمعاء . فموته من المصائب العامة التى يحسّ خطرَها كل امرئ يقدر روعة الفكر ، ويحتفل لأبهى صور الجمال .

ولو ان الله تعالى بعث الشعور فى مظاهر هذه الطبيعة وأقدرها

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

العلوم

٥ ـ بحث فى أصل الانسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

إذا قلنا إن الانسان يمتاز من سائر الحيوان بقواه العقلية وقدرته على التفكير الحر فيجب ألا ننسى حينئذ أن من أهم مميزات الانسان اعتدال قامته وعدم اعتماده على شىء عند المشى : لكننا مع ذلك لا نستطيع القول بأنه خلق كذلك ، لأن صغار القردة Antrepoids تكون ذات جسم معتدل تحمل جسمها وكل عضلاته فى صغرها على اتجاه عمودى ، إلا أن أقدامها لا تساعدها على البقاء كذلك فى سيرها ، ولا يمكن لجسمها الاحتفاظ بتوازنه عليها ، لأنها لا زالت تعد وتستعمل أداة للقبض ، فانفرج ما بين أصابعها لهذا الغرض ، بعكس الجنس الانسانى الذى تطورت حالة قدميه ، فصار فى طاقته المشى عليهما وحدهما دون الاعتماد على يديه هناك أجزاء ثلاثة : وهى القدم وعظام الفخذ والسلسلة الفقرية ، وقد كان فى تطورها والتغيرات التى حدثت بها أكبر مساعد على اعتدال قامة الانسان وقدرته على المشى وحده . ولذلك يمكننا أن نحكم على أى مخلوق بالدرجة التى وصل اليها مقترباً من الانسانية أو مبتعداً عنها بمجرد فحص عظمة فخذ أو عظمة من عظامه المتحجرة .

كيف وقف انساله جاوة

إذا نحن دققنا البحث فى عظمة فخذ إنسان جاوة وهى الأثر الذى تركه ، نجدها طويلة دقيقة إنسانية فى كل شىء ، تدلنا على أن ذلك الانسان أو المخلوق الذى صارت هى بقيته الباقية ، لابد وأنه كان يسير مستقيم الظهر يعرف الجرى والقفز . . . حقيقة هنالك بعض اختلافات فى تكوين وشكل هذه العظام المتحجرة إلا أن هذه الاختلافات لا تبعدها عن كونها إنسانية ولا تقربها بأى حال من الأحوال من شكل عظم فخذ القردة . ورغم أوجه الشبه بين الانسان القرد والقرد فانه كان انساناً . ومن شكل وطول عظمة الفخذ هذه يمكننا أن نصور إنسان جاوة

على النطق ، لشارك فى إحياء ذكرى شوقى البحرُ الخضمّ ، والجبلُ الأشمّ ، والفَلَكُ الدائر ، والنجم المختلج الحائر ، والعود اذا أورق ، والزهر اذا نوّر وأشرق ، ولاجتمعت لمأتمه كل سَجوع من بنات الهديل ، يقمن عليه المناحات بأحدّ النواح وأحر العويل . فلقد طالما أضحك وسرّى ، ولقد طالما أطرب وأشجى ، ولكم جلا من صور الطبيعة فأجاد وأحكم ، وأنطق الصخر فى مرسخه لو كان الصخر يتكلم ، ولكم لاغى الطير غادية ورائحة ، ولكم لاعب الغزلان شاردة وسانحة ، ولكم داعب الغصن حتى تثنى خصره ، وغازل الزهر حتى تنفس بهواه أرَجه وعطره !

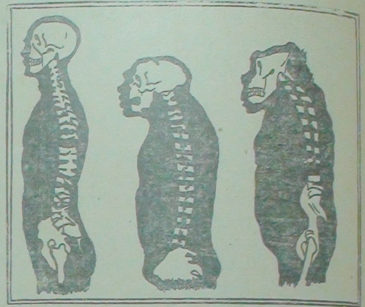
شوقى لم يمت ، ومثل شوقى لا يموت أبدا ، بل إنه ليزداد حياةً على تطاول الأجيال . هذا شوقى حى أقوى الحياة فى بيانه القوى ، وسيظل هذا البيانُ المشرعَ العذب النمير ينهل منه بنو العروبة ما قدّرت للعربية فى هذه الدنيا حياة .

سيداتى ، سادتى :

وافقت ليلة حديثى ذكرى وفاة أمير الشعراء . ولابد من أن أقول فيه كلاماً ، ولكن كيف لى بهذا الكلام ، وقد جئت الليلة الى المحطة وأنا متداع متهدم من أثر المرض ، هذا فضلا عن أننى لا أذكر أننى كتبت فى إنسان مثل ما كتبت فى شوقى . فلقد جلوت له من ثمانى سنوات (مرآة) عريضة فى السياسة الأسبوعية ، وحللت تاريخه وشخصيته وشاعريته فى كتاب المفصل المقرر للسنين الأخيرة فى التعليم الثانوى . وكتبت فيه هذه الأيام كلاماً كثيراً سينشر هذا الأسبوع فى مجلة «الرسالة» بمناسبة هذه الذكرى أيضاً ، فلم يبق لى مع هذه الأحوال طاقة بجديد فيه الآن ، فأرجوكم أن تعذرونى إذا حدثتكم بعد هذا بنبذ مما سبق به القول ، أقتبسها من هنا ومن هنا ، ولعلها تجلو شوقى على من لم يدرسه بعض الجلاء .

عبد العزيز البشرى

بأنه كان نحيفاً تبلغ قامته ٥ أقدام و ٩ بوصات ، وأنه كان معتدلها يمشى كما نمشى نحن الآن تماماً .



شكل (٧) الى اليمين عظام قرد ، ومنها يلاحظ ان العظام مركبة بحيث تسمح بالانتصاب عند الحاجة ، أما هذه التى الى اليسار فانها فقرات انسان بها ثلاث انحناءات وهذه ميزة خاصة به لانها تمكنه من الانتصاب الدائم ، وأما الوسطى وهى الخاصة بانسان النياندرتال فوسط بين الاثنين

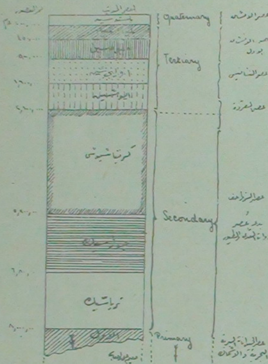
(نقلا عن رسم البروفسور بول)

وهنا يمكننا أن نقول بكل ثقة إن الانسان قد اكتسب هذا الاعتدال فى القامة والمشى قبل نهاية عصر البليوسين ، وإننا إذا أردنا البحث عن حاله قبل ذلك فانه يجب علينا حينئذ أن نتوغل فى عصر جيولوجى أقدم من ذلك بكثير ، ولكن قبل أن نتقدم بذلك يحسن بنا أن نذكرك بالحقيقة الهامة وهى أن الانسان قد اكتسب قوامه المعتدل قبل اكتسابه قواه الفكرية كانسان ، وانه قد ظل مطبوعاً بطابع القردة فى شكل الفك والجمجمة حتى نهاية عصر البليوسين ، وبدء عصر البلستوسين .

وبواسطة تلك الآثار والمخلفات التى وجدناها فى المقابر والكهوف ومدرجات الأنهار ، أمكننا أن نتتبع تاريخ الانسان الى عصور سحيقة من عصور التاريخ متناهية فى القدم . وعند ما أردنا البحث فى ذلك بدأنا البحث فى بقايا العصور الحديثة ، ومنها تعمقنا الى ما هو أقدم منها ، وطريقنا فى ذلك سهلة للغاية ، فاننا نبدأ بالمعلوم كى نصل الى المجهول ، وبالظاهر حتى نكشف عن الخفى ، ولذلك فانه بفضل تلك الأدوات والمخلفات الصخرية القديمة قد أمكننا أن نتتبع تاريخ الانسان فى عصر البلستوسين ، ومنه تدرجنا الى البليوسين .

جولة فى عصر ذوات الثدى «العصر الثالث» Tertiary

لذلك سوف نتعمق فى أبحاثنا نحو عصر من العصور القديمة جداً ، هو العصر الثالث أو ال Tertiary . ولكن قبل أن نخوض غمار ذلك البحث نجد لزاماً علينا نحو القارىء الكريم أن نعطيه فكرة عن ذلك العصر الذى ذكرناه .



شكل (٨) نقلا عن رسم السير أرثر كيث ومنه يظهر تتابع العصور الجيولوجية وتتابع الحياة وعمرها

لا زلنا نذكر أننا قد أعطينا فى مقال سابق تحت عنوان مقال اليوم مقياساً تقديرياً لعصور الكهوف ومدرجات الأنهار وتتابع الطبقات وأعمارها فى كل منهما ، وسنجد أنفسنا مضطرين لأن نفعل ذلك فى ذلك العصر الذى نحن بصدده الآن .

من الشكل «٨» يمكنك أن ترى تتابع عصر البلستوسين لعصر البليوسين ، وهذان العصران يفصلهما حد زمنى له أهمية فى هذا المجال لأنه عند تخطى عصر البليوسين للعصر الذى يتبعه نجد اختلافا كبيراً فى شكل الحيوانات الثديية الموجودة به ، ولذلك فان علماء الجيولوجيا يعتبرون عصر البلستوسين أول مجموعة من المجاميع التى تكون حلقات تاريخ الأرض وتاريخ الانسان الذى سكنها ، وقد وضع لهذه المجموعة اسم quaternary وهى تبدأ بعصر البلستوسين وتنتهى حينما تراجع الخط الجليدى الى الدائرة القطبية

أما الحلقة الثانية فقد بدأت (على قول العلماء) بعد ذلك بنحو عشرة أو اثنى عشر ألف سنة ، وفى إبانها أخذت

الانسانية تظهر بمظهرها الحديث ، ويبدأ الانسان باعداد نفسه بصقل مواهبه وقواه الفكرية ، ليغزو العالم ويسيطر على عرشه الذى قد أعده الله له .

أما عصر البليوسين وهو الذى يقع فى الجانب الآخر من هذا الفاصل فهو الرابع والأخير لمجموعة تكون إحدى حلقات السلسلة التى تكلمنا عنها ، وهذه المجموعة هى التى أطلق عليها العلماء اسم Tertiary

وأما الحلقة الثالثة وهى عصر الميوسين Miocene فانها تشمل مدة أطول من مدة عصر البليوسين . ولما كانت الطبقات التى تدل عليه وتحمل آثاره يبلغ سمكها ٩٠٠٠ قدم ، بينما طبقات البليوسين لم تتجاوز ٥٠٠٠ قدم ، واذا كنا قد قدرنا عمراً لعصر البليوسين مقداره ٢٥٠ ألف سنة بالنسبة إلى سمك طبقاته ، فاننا لا نغالى إذا قدرنا لهذا العصر من العمر ٤٥٠ ألف سنة .

وأما ثانى حلقات عصر الـ Tertiary وهو الأوليجوسين فانها تعمر عصراً أطول من سابقتها ، وقد بلغ سمك طبقاتها ١٢ ألف قدم ، ولذلك فانه لا يسعنا أن نقدر لها عمراً أقل من ٦٠٠ ألف سنة .

نصل بعد ذلك إلى أولى وأقدم حلقات هذا العصر وهى الأيوسين ونقدر لها عمراً ٦٠٠ ألف سنة أخرى وذلك بالنسبة إلى سمك طبقاتها التى تساوى أو تقارب سمك الحلقة السابقة .

هذه هى الحلقات التى يتكون منها العصر المسمى Tertiary وهى فى الدرجة الأولى من الأهمية فى تطور الانسان . إذ أنها تشمل فجر نشوء الحيوانات آكلة الخضروات ، وهى التى ترضع صغارها ، وهى كلها من ذوات الرحم عدا أنواع قلائل يمكن استثناؤها . وفى فجر هذا العصر بدأت ذوات الثدى فى تغيير شكلها وتكوينها تغيراً كبيراً ، وتغلبت فى تنازعها البقاء والصلاحية على باقى الحيوانات الزاحفة القديمة .

ولما كان الانسان من ذوات الثدى ، فان من العبث أن ننتقل الى عصر آخر أقدم من هذا لنبحث عن نشأة الانسان ، لأن العصر الذى يلى ذلك لايشمل إلا كل زاحف . ومن الشكل (٨) نرى أن العصر الثانى وهو الشامل لعصر ذوات الثدى يمتد لفترة طويلة جداً قد يبلغ مقدارها نحو ٦ ملايين سنة كما يقول العلماء ، وإنى لا أريد أن يتبادر الى ذهنك أنه عند الحد الفاصل بين العصرين قد حلت ذوات الثدى محل الزواحف دفعة واحدة ، أو أن الأخيرة صارت من الأولى بتغيير سريع فجائى ، لأن هذا التغير يلزمه وقت طويل مع بطء وتدرج ، وقد وجد من حفائر العلماء فى طبقات العصر الثانى آثار لزواحف كانت قد أخذت تتغير وتطور من شكلها وتكوينها كى تتناسب مع الوسط الذى كانت ستعيش فيه ، وهو وسط ذوات الثدى ولتصير إحداها ، وأن هذه الزواحف قد أخذت تتغير وتتشكل حتى نهاية هذا العصر واتسمت بسمات خاصة ميزتها فى أوائل عصر الايوسين

ولست أرى أية ضرورة لأن أتعمق أكثر من هذا الى العصر الجيولوجى الأول حيث تظهر قوة التطور فى الأسماك والحيوانات البحرية حتى أمكنها أن تغير من شكلها فى أواخره وتستطيع العيش على البر كما تعيش فى البحر فأطلق عليها اسم Amphibians برمائية

والآن وقد تكلمنا عن العصور الجيولوجية ، وأعطيناك من المعلومات عنها ما فيه الكفاية ، نعود بك إلى بحثنا الأصلى وهو أصل الانسان .

عندما تتبعنا آثار الانسان القديم فى الطبقات الجيولوجية القديمة فى شرقى انجلترا أمكننا الوصول والتعمق بأبحاثنا الى ما يزيد بواسطة ما قد وجدناه من آثاره وأدواته الصخرية المتحجرة الى وسط عصر البليوسين ، وقد توصلنا بعد ذلك الى الكشف عن بقايا مخلوق آخر أسميناه إنسان جاوه واعتبرناه أنموذجا للكائن الذى كان يسكن هاته الجزيرة فى ذلك العصر . وعرفنا أنه كان شبيهاً بالقردة فى شكل الجمجمة فقيراً الى تلافيف المخ ، قليل الادراك والتفكير ، لكننا مع ذلك عرفنا أنه كان إنساناً فى مشيته واعتدال قامته .

ولذلك كان واضحاً جلياً أن يعمد العلماء إلى التعمق فى بحثهم فى عصر أقدم من ذلك العصر بكثير حين تطور الانسان شكلا وعقلاً من حال القردة . ومع أنه لم يوجد أى أثر لهذه الحلقة فى التطور الانسانى فى أى طبقة من طبقات الأرض ، وذلك ما جعل العلماء فى حيرة من أمرها ، فقد وجد فى الطبقات الأولى من عصر البليوسين ما ساعدهم على كشف سر هذا التطور والوصول الى حلقتهم المفقودة .

يتبع نعيم على راغب

البريد الأدبي

مؤتمر الكتاب السوفييت

وسير الأدب الروسي الحديث

عقد أخيراً مؤتمر الكتاب السوفييتيين (الروسيين البلاشفة) فى موسكو ، فشهده زهاء ستمائة كاتب من مختلف الجمهوريات السوفييتية مثل : اليوكرين ، والقوقاز ، وبلاد الكرج ، والتركمان ، والغرغيز ، ثم روسيا ذاتها ؛ وهم يمثلون اثنتين وخمسين أمة مختلفة هى أمم الاتحاد السوفييتى ، واثنتين وخمسين لغة وآدابا مختلفة ؛ وشهده أيضاً جمهور كبير من كتاب الأمم الأخرى والصحفيين من مختلف البلدان ؛ وألقى أعلام الأدب الروسى المعاصر مثل جوركى ، وبوخارين ، وإيفانوف ، وبابل ، وايرنبورج ، واسكندر تولستوى ، خطباً ضافية فى وصف الروح الجديدة التى تسيطر على التفكير الروسى ، وهى روح الحقيقة الاشتراكية . وخطب فى جمهور الشباب الذين شهدوا المؤتمر الكاتب الفنان أوليخا ، فتساءل عن الجيل الروسى الجديد ماهو ؟ وماذا يغلب فى توجيهه ، أهى العاطفة أم العقل ؟ وهل هو حساس يفيض حناناً ودمعاً ؟ وماذا يشعر نحو المجتمع الأشتراكى الذى خلقه ورعاه ؟ وكان من المناظر الشائقة أن خطبت صبية سيبيرية فى الرابعة عشرة من عمرها ؛ فتحدثت عن أمانى الشباب نحو الأدب ، وطالبت الكتاب الروس بمضاعفة نشاطهم فى إخراج الكتب التى يحتاج اليها الشباب ، ثم نوهت بما يلاقى الأطفال من رعاية فى روسيا ، وبأنهم ينعمون بما لا ينعم به الأطفال فى أى بلاد أخرى من بلاد العالم .

وقد ساد فى المؤتمر على ما يصفه كاتب مشاهد ، جو من الحرية والصراحة والاخلاص قلما يبدو فى المؤتمرات العامة ، وألقيت فيه الآراء المضمرة والظاهرة بحرية لم يحدها شىء ؛ ولم يحجم الكتاب الضيوف عن إبداء آرائهم بمنتهى الصراحة ؛ وتولى الرد عليهم أقطاب التفكير البلشفى مثل بوخارين وكارل رادك ؛ وكان الجدل برغم احتدامه يطبعه كثير من الصراحة والولاء .

ونقول بهذه المناسبة إن الفن والآداب الروسية لم تتأثر بالموجة البلشفية الهدامة بل ازدهرت فى عهد الحكم السوفييتى ، وعنى البلاشفة دائماً برعايتها وتشجيعها . ذلك لأن أقطاب البلاشفة كانوا كتاباً وأدباء قبل كل شىء . والاشتراكية تقوم على توجيه الفكر وتغذيته بالأدب والفن ؛ وفى روسيا الآن نهضة أدبية وفنية تضارع أعظم النهضات المماثلة فى البلاد الأخرى . وبزغ فجر النهضة الأدبية الروسية المعاصرة منذ سنة ١٩١٩ بعد أن خمدت الحركة الأدبية مدى عامين كانت روسيا تضطرم فيهما بنار الثورة والحرب الأهليـــة . وظهرت الروايات والقصص الأولى المطبوعة بروح الاشتراكية سنة ١٩٢٠ ؛ وبدأ الكتاب القدماء باتخاذ أساليب وصور جديدة تناسب الروح والأحوال الجديدة . وفى وسعك أن تتتبع مراحل البلشفية والمجتمع الجديد خلال الكتب . ففى المرحلة الأولى كانت المبادئ الثورية والاقتصادية الجديدة تطبع الأدب بطابع عميق ؛ ولما تطورت البلشفية ، وأبيحت الملكية الخاصة فى حدود معينة ، وظهر مجتمع « بورجوازى » جديد ، ظهرت الميول «البورجوازية» مرة أخرى فى الأدب الروسى ولكن بصورة مخففة . ونشبت هنا معركة بين الأدب الشيوعى المتطرف ، والأدب المعتدل ، وعاونت الحكومة دعاة التطرف فى هذه المعركة ؛ وسيطر الجناح الشيوعى على التوجيه الأدبى ، وعاق بذلك تقدم الحركة الأدبية . ولكن مهمة الجناح الشيوعى الأدبيـة انتهت بتغلب السياسة الاقتصادية الجديدة . وفى ابريل سنة ١٩٣٢ أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى حل جميع الجمعيات الأدبية ، ومنها جماعة الحزب نفسه ؛ وأعلنت إنشاء هيئة واحدة تضم كتاب الاتحاد السوفييتى جميعاً ؛ واستمرت الهيئة الجديدة فى طور الانشاء مدى عامين ؛ وهذا المؤتمر هو أول مؤتمراتها .

المناعة ضد الحمى الصفراء

اكتشاف طبى جليل

قدمت أخيراً إلى أكاديمية العلوم الفرنسية مذكرة باكتشاف طبى خطير ، هو مصل جديد لمقاومة الحمى الصفراء . والحمى الصفراء من الأمراض الوبائية التى تجتاح المناطق الحارة فى

أفريقية وأمريكا الجنوبية ، وتحدث من لدغ البعوض الذى يحمل ميكروبها ، وهو المعروف فى اللغة العلمية Stegomuya fasciata وقد وفق إلى هذا الاكتشاف الجليل الدكتور ليجريه من أطباء معهد باستور فى تونس ، والدكتور سيلاردس الأمريكى ، ومذ اكتشف البعوض الذى يحمل الميكروب كانت مقاومة الحمى الصفراء تجرى بواسطة اتلافه فى المدن الاستوائية الكبرى مثل ريودى جانيرو وهافانا وثغور أفريقية الغربية ، ولكنه كان فى الداخل يعصف بالسكان شر عصف . فعكف العالمان المذكوران على إجراء البحث لاكتشاف مصل يفيد فى المناعة ضد الميكروب ويقى الانسان نهائياً شر هذا البعوض الفتاك ، وتوصلا إلى اكتشافه عن طريق القرد والجرذ . ذلك أن ميكروب هذا البعوض لا تمكن رؤيته بالميكروسكوب ؛ وهو شديد الفتك بالقردة ، ولكنه لا يؤذى الجرذان إلا إذا كانت الاصابة فى المخ ، فعندئذ يتحول فعل الميكروب ويغدو شديد الفتك بها ، وقد لقح العالمان المذكوران الجرذ فى المخ بدم البعوض ، ثم استخرجا « الفيروس » (الميكروب) من الجرذ ولقحا به القردة فلم يؤثر فيها . ومن هنا نشأت فكرة المصل الواقى ، وقد لقى الدكتور ليجريه صعاباً كثيرة ، ومنع من اجراء تجاربه فى البشر فى معهد باستور ، ولكنه استطاع أن يجربها فى ثلاثة من التونسيين تطوعوا لذلك ، فجاءت النتائج العملية تؤيد اكتشافه . فانتقل إلى أفريقية الغربية ، وفاوض السلطات فى دكار حتى سمحت له بتلقيح ثلاثة آلاف أوربى بالمصل الجديد ؛ وكانت النتيجة باهرة ، لأن ألفين لم يحدث لهم شىء ؛ وأصيب الألف الباقى بشىء من رد الفعل والحمى اليسيرة ؛ وكانت مناعة الذين لُقِّحوا تامة ضد البعوض المعدى ؛ وتأيدت بذلك صحة الاكتشاف وخطورته ، وقدم بذلك مذكرة إلى أكادمية العلوم لتتوجه بصفة رسمية .

ويجرى اللقاح المذكور على ثلاث دفعات بين كل منها عشرون يوماً ، وتؤخذ مادته من ميكروب الجرذان الحى ، ويمكن تجفيفه وتصديره إلى الجهات الحارة دون أن يفقد خواصه .

ولا ريب أن سيكون لهذا الاكتشاف أثر عظيم فى مكافحة الحمى الصفراء وانقاذ الملايين من فتكها الذريع .

مؤرخ مسرحى

توفى فى أوائل هذا الشهر أديب ومؤرخ فرنسى كبير هو فيلكس جاف ، أستاذ الآداب بالسوربون ، وكان مولده فى سنة ١٨٧٤ . وقد بدأ بتدريس النحو وفقه اللغة فى السوربون ؛ ولكنه شغف بالموسيقى والمسرح والفن ؛ وعنى عناية خاصة بدرس تاريخ الفن والمسرح ؛ وأصدر فى سنة ١٩١٠ أول كتاب جامع عن « الدرامة » ، وعنوانه « الدرامة فى فرنسا » Drame en France ؛ ثم أصدر كتاباً عن « المتناقضات فى عصر لويس الرابع عشر » وشغل كرسى « تاريخ الأدب المسرحى » فى كلية باريس أعواماً طويلة ، وكان حجة فى كل ما يتعلق بهذا النوع من الأدب .

ذكرى أناتول فرانس

كان يوم ١٢ أكتوبر الجارى هو الذكرى العاشرة لوفاة كاتب فرنسا الأكبر أناتول فرنس . وبهذه المناسبة عنيت جمعية تخليد ذكرى أناتول فرانس التى يرأسها الكاتب الكبير جول رومان بوضع لوحة تذكارية فى قرية بشيليرى التى قضى فيها فرانس أعوامه العشرة الأخيرة ، وتوفى فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، واحتفل بوضع هذه اللوحة فى جمع حافل من أصدقاء الكاتب الكبير والمعجبين به . وهى خطوة من خطوات تزمع الجمعية اتخاذها لتخليد ذكراه .

قبر سيرانودى برجراك

للفرنسيين ولع شديد باكتشاف قبور عظمائهم التى طمست وغمرها النسيان ، وفى فرنسا جمعيات أثرية كثيرة تعنى بالعمل فى هذا السبيل . ومنذ أعوام قلائل استطاعت إحدى هذه الجمعيات أن تعثر بقبر الفيلسوف ڤولتير ورفاته تحت أقبية الكنيسة التى تذكر الرواية أنه دفن بها . ومنذ أشهر اكتشفت جمعية أخرى قبر الشاعر رونسار فى بلدته التى دفن بها ؛ وقد قرأنا أخيراً أن جماعة أثرية أخرى تعنى باكتشاف قبر « سيرانودى برجراك » وهو السيد الذى خلد روستان اسمه فى روايته الشهيرة . والمعروف أن سيرانو حينما اشتد عليه المرض غادر باريس فى سنة ١٦٦٥ إلى بلدته الأصلية « سانوا » ومات هنالك ، ولا يزال اسمه مسجلاً فى دفتر الوفيات بكنيسة القرية المذكورة . وقد أجريت مباحث فى السهل الذى يوصف بأنه دفن فيه فى ظاهر القرية . واكتشف بالفعل هيكل عظمى ظن بادئ بدء أنه هيكل سيرانو ، ولكن ظهر من فحصه أن عظامه دقيقة كأنما هى عظام امرأة أو فتى لم يكتمل أطوار النمو . ولكن الباحثين لم ييأسوا ، ولا زال البحث يجرى لاكتشاف رفات سيرانو ذى الأنف الضخم .

النقد

٢ - أصدقائي الشعراء!

هذا لا يؤدي

بقلم معاوية محمد نور

وعندي أن السر في أن شعر علي محمود طه المهندس قد نال شيئاً من التقدير والثناء مرجعه لأجادة الصنعة والصقل، ولو أن مواده هي الأخرى تافهة بدائية المعنى، غير صادقة، يعوزها الشعور الفردي القوي، والنظر الأصيل الواحد.

ثم لأن العرف الدارج والعقل الشعبي قد تعود أن يقرن الشعر بمظاهر الطبيعة المعروفة. فيقول الناس عن ليلة مقمرة: إنها ليلة شعرية، أو عن روضة فيحاء: إنها تبعث على النشوة والسرور، وإنهما لكذلك. غير أن الشاعر الذي لا يتعدى في نغمه ووعيه الشعري سوى ترديد ما تواضع عليه الناس وأقروا به، إنما يدل على أن المحاكاة والتقليد والعرف الدارج هي أميز خواص فكره، وأخص ميادين لعبه الفكري.

وعلي محمود طه يكتب عن الطبيعة ويستوحي النهر والبحر والغدير والقمر والأشباح والرياض والشفق، ويفهم أن «الطبيعة» التي يجدر بأن تنظم شعراً هي الطبيعة في أضخم مظاهرها وأعظمها، وأوقعها في الحس، وأشدها رائحة، وأهولها منظراً؛ وهو لا يفهم هذا الفهم ويتجه اليه لأن مزاجه هكذا، ولكن لأن هذه الأشياء قد كثرت في الشعر وأصبحت معروفة معترفاً بها على أنها تصلح موضوعاً للشعر، ولو لم يحس الأديب تجاهها بأي شعور غريب أو نظر حديث.

وبديهي أن الشاعر المعاصر الذي لا يلتفت في عالم الطبيعة إلا الى المظاهر التي التفت اليها خلافه من عهد آدم، يدل أولاً على أن تقدمه الذهني وقف هناك، وأن وعيه الفني لم يتطور؛ ففي الطبيعة خلاف البحر الذي يقف عنده القروي، وفي الطبيعة خلاف الشواطئ التي تقف عندها سفن البحارة، أشياء أخرى أدق وربما كانت ألصق بحياتنا وأجدر بالتفات الشاعر. فالحجر الصلد الذي يقف في طريقك، و «الشارع» الذي تصقله مصلحة التنظيم حيث يعمل جماعة المهندسين، والفأر الهارب من سفينة خربة، والذباب الذي يطن على جيفة عفنة، وقطعة الحديد التي أكلها الصدأ، والخشب الذي نأكل عليه، والزرع الذي نلبسه ثياباً، والعصفور الوحيد الذي ينتقل من بيت لآخر، والنمل، والنحل، وصوت الباخرة، وضجيج الترام، وخلافها من المظاهر التي نراها ونسمعها في غدوّنا ورواحنا هي أجزاء حية في الطبيعة، والالتفات اليها في وضع جديد أتى به نظام حياتنا الراهنة وحضارتنا المعاصرة، لأدلّ على فهم الطبيعة من آلاف القصائد عن البحر والشفق والنجوم!.

ويجب ألاّ يفهم من هذا أننا ننكر على الشاعر أن يعنى بمظاهر الطبيعة الكبرى البدائية الجليلة أو المتوحشة، ولكن هنا يقل الابداع، ولا يسلم الشاعر من الاسفاف والتفاهة، إلا اذا كان عملاقاً عظيم النظر فريد الشاعرية؛ كما أننا لا ننكر الالتفات الى «المظاهر الرومانتيكية» التي يولع بها المهندس، ولكن هذا الالتفات وهذه العناية «بالربيعيات» يسهل فيه الغش، وتندر به الاجادة والتفرد؛ وهو أقرب طريق يلجه الأديب القليل الحيلة المقلد الأسلوب، الذي لا تميزه شارة، ولا يستشف في تكوينه إصالة نظر أو عمق تفكير.

وكثير من شعراء أوربا المعاصرين اقتربوا من الموضوعات الرومانتيكية بأسلوب جديد، فبدلاً من الحديث عن سحرها وخوفها وهولها، تراهم يحاولون تفسيرها والنظر اليها من خلال شعور وعقلية رأت وسمعت وقرأت ما يجعلها تنظر الى هذا الجمال والهول والخوف من زوايا جديدة ليس فيها ذلك الجهل الناطق.

فان كل شيء لا يعرفه الانسان يبدو له سراً تحار فيه الأذهان ، ولو كان من أبسط البسائط !

فالقروي الذي يزور القاهرة لأول مرة ويشاهد « المصعد الكهربائي » لا يمكنه إلا أن يذكر الله والأسرار ، وتتملكه الحيرة والعجب ، فاذا حاول مثل هذا الرجل أن ينظم قصيدة عن « المصعد » فقد تروق لأمثاله الذين لا يعرفون الميكانيكيات « وقوانين الطبيعيات » . ولكن القارئ المتحضر لا يستطيع قراءة قصيدة تنسب الى هذا المصعد أهوال الجن وعمل الشياطين !

فالثقافة ووعى العصر الذى نعيش فيه لابد منهما لأى فنان يكتب ليقرأه الجيل الذى يعيش بينه ، وذلك لأن الشاعر المصرى المعاصر لايعيش فى « شبره » أو « ديوان حكومى » ، ولكنه قبل ذلك إنسان حى يعيش فى كل العالم ، ويحس ببعض ما يدفع بالنفوس الآدمية الى مناجاة النفس مثلاً فى روسيا ، أو الحركة والعمل فى أسبانيا واليابان . والذى يستطيع أن يرى فى شارع عماد الدين مثلاً وجوهاً وأجساماً وثياباً وآلات كاملة الصنعة مصقولة المظهر ، يخبر مظهرها عن السكون والاطمئنان ، غير أنها تفتح عوالم داخلية مروعة . وبالاختصار فان الفنان الذى لم يحس بقبس أو لمحة أو ناحية من « تيار وعى » Stream of consciousness كامل يمكنه من رؤية التشابه فى أشياء ، ومظاهر بادية الاختلاف ، أو بالعناصر والقوى والفكر التى تذهب جميعاً لاخراج فكرة أو مظهر عادى مما نراه فى حياتنا اليومية ؛ ليس لديه تلك الملكة الشاعرة التى تستطيع أن تبنى القصور من الرماد والهواء ، أو تحلل السيارة الجيدة الصنع ، الجميلة المظهر الى عناصر حلم وغفوة إنسان وعصب حيوان ، أو فقرات مادة سنجابية وجرح عامل فقير ، ليس له ذلك الاحساس النافذ القدير على التكوين والتحليل ، الذى يجبر القارىء على الانصات له والاستماع لنغمه الشعرى .

وإنى لأعجب كيف يعجب أى قارىء له حظ من الثقافة ودقة الحس بكلام مثل هذا :

رب ليل مر أمضيناه ضماً وعناقا
وأدرنا من حديث الحب خمراً نتساقى
فى طريق ضرب الزهر حواليه نطاقا
وتجلى البدر فيه ، وصفا الجو وراقا

فاذا كان هنالك حب وضم وعناق ، وزهر وبدر وجو رائق ، فالانسان العادى ليس به حاجة ليحس بنشوة آدمية حسية من غير أن ينظم له هذا الكلام شعراً . وإن أى افريقى فى أدغال أفريقيا ، حينما يصفو الجو ، وينمو الزهر ، ويشرق البدر ، ويحب امرأة يستطيع أن يقول هذا الكلام .

وعند على محمود طه أيضاً شعور غير محمود بأنه شاعر ، ذلك لأنه قد ضم كل الشعريات وأحصاها فى ديوانه . فقصيدة ميلاد شاعر مثلاً كلها تمجيد لهذا الرجل الذى يحسب نفسه شاعراً ، لأن لفظة الشعر والشاعر والزهور والألحان تكثر فى كلامه .

والرجل الذى يستطيع أن يكتب — بعد معرفتنا الحاضرة وشعورنا المحدود الذى أتاحه لنا العلم والبحث العصرى مثل هذه الأبيات الآتية ، إنما أحسده لبساطته التى لا تحسد .

وتجلى الصدى المهتوف الساحر — فى محيط من الأشعة غامر
وسكون بث فى الكون روعاً — وقفت عنده الليالى الدوائر (كذا)
واستكان الوجود والتفت الدهر — وأصغت الى صداه المقادر (كذا)

وقد يتورط محمود طه فى غرامه « بالشعريات » برسمه صوراً مضحكة إذا لم تكن مستحيلة كقوله :

ماؤه ذوب خمرة وسنا شمـ — ـس وريا ورد وألحان طائر

وعنده اذا لم يجعل هذا الماء ذوب خمر وسنا شمس وريا ورد وألحان طائر فى آن واحد فهو ليس بشاعر . وأى منطق يستطيع أن يفهم شيئاً يكون سنا شمس محرقة ، وريا ورد ، ثم يكون فى نفس الوقت صوت طائر ؟ ! . اللهم إن هذا خلط قبيح لا نرضاه لصديقنا الشاعر .

وليس أدل على فهم شاعرنا لطبيعة الشعر من قوله فى رثاء شاعر :

وهو شعر صورت ألوانه — بهجة الفجر وأحزان الشفق
ونشيد مثلت ألحانه — همسات النجم فى أذن الغسق

وفى قصيدة « الله والشاعر » بساطة مؤلمة فى أن يأمر أديب الأرض بأن :

مدى لعينيه الرحاب الفساح — ورقرقى الأضواء فى جفنه
وامسكي يا أرض عصف الرياح — والراعد المغضب فى أذنه

فهذا كلام لا يشرف أى طالب فى مدرسة ثانوية ، فضلاً عن شاعر عصرى . والقصيدة ملأى بهذه الأشياء التى تواضع

البسطاء على أنها الطبيعة التي لا طبيعة غيرها .

مر بنهر دافق سلسبيل ... تهفو القمارى حول شاديه
فى ضفتيه باسقات النخيل ... ترعى الشياه تحتها غانيه

فإذا كان هذا النهر ملحاً مثلا ، وكانت هنالك ضفادع على حوافيه ، وأحجار تدمى الأقدام بدلا من النخيل ، فليس هنالك طبيعة تجدر بالشاعر والشعر ! :

حتى إذا شارف ظل الشجر ... فى روضة غناء ريا الأديم
قد ضحكت للنور فيها الزهر ... وصفقت أوراقها للنسيم

فهذا الشاعر لا يكفيه أن تكون هنالك روضة غناء ريا الأديم ولكن لا بد أن يضحك الزهر ويصفق النسيم لأول مرة !

أما المسائل الفكرية التي أثارها الشاعر فى حواره مع الله فهى أول ما يقرأ الطالب فى العلوم الدينية فى باب القضاء والقدر .

إن مسألة الأثم والشر لا يعالجها فنان عارف بمثل هذه البساطة وفى قصيدة «قيثارتى» مثل قوى لهذه النزعة نحو «الشعريات» التى حاولنا إيضاحها ، وهذه هى أواخر الأبيات من غير تحوير ولا مبالغة ، ولو أنها أشبه بالمبالغة والتحوير :

الغور والآكام . الشعر والالهام . مودتى وذمامى — قديم هيامى . قلبى الدامى . دمعى الهامى . حبيسة الأنغام .

إن مثل هذا الشعر ليوحى الى القارىء الدقيق الحس كراهة الآكام والزهور والبحار والأنغام وما إليها لهذه النغمة المبتذلة الكثيرة التكرار ، التى لا تحس معها بواقعة حال صحيحة ، أو شعور نضر مباشر !

وإنما أتينا بهذه الاستشهادات لندل القارىء على أننا لا نتعسف ، وإلا فان الديوان كله يصح أن يستشهد به ، فما يخرج فى الفاظه ومعانيه عن هذه الألفاظ والأمثلة والمعانى .

وقد كنا نظن أن أصدقاءنا من الجيل الجديد الذين يشتغلون بالشعر ، يفهمون الشعر على حقيقته ، وأنه ليس الفاظاً ومبالغات عن عالم الطبيعة والزهر والحب وما اليه من الألفاظ والأخيلة التى يسهل على أى يد تحرك القلم أن تأتى بها .

* * *

أصدقائى الشعراء ، أقولها لكم مخلصاً : إن هذا عبث قبيح بالكبار . وأقبح ما فيه أن يأتى من جيل جديد له دعوى كبيرة نسمع عنها فى الصحف ، وهو على هذا التخلف المعيب فى فهم الفنون والحياة . ولو أننا رأينا الاتجاه صحيحاً ، وأن الطريق الذى تسلكونه مهما كانت النظرة زائغة والنغم غير منسجم لتساهلنا ، وكانت معالجتنا للموضوع غير هذه ، غير أن الطريق من أوله خاطىء ، وأن الفهم من أساسه غير صحيح ، وأن هذا الطريق لا يؤدى أبداً ، وأن الشىء الذى نسميه شعراً هو خلاف هذا فى جملته وتفصيله ، فمن شاء منكم فليرجع الى نفسه يحاسبها ، وينظر من جديد ، ويقرأ ما يقول خلافه من الشعراء الفحول ، وخاصة المعاصرين فى أوروبا ليرى فى أى طريق تسير الأقدام ، وأى عوالم يكتشف الفنان المعاصر ، وأى المسائل يبحث النقاد ، وأى «وعى فنى» يجدر بالفنان الحى الذى يعيش فى عالم الأحياء الشاعرين .

معاوية نور

القصص

الأم الثانية

للأستاذ محمد سعيد العريان

كم كان نجيب أفندى وفياً لزوجه براً بأسرته ؛ إنه لم يكن يسمح لنفسه أن يقضى خارج البيت قليلاً من الوقت لغير عمل ؛ فأين تلتمسه لا تجده إلا فى الديوان أو فى البيت ، وفى فترات قليلة كان يجلس الى أصحابه فى النادى يستمع إليهم ويستمعون اليه ، ولكنه كان حريصاً كل الحرص على الموعد الذى حدده لعودته الى حيث يجد فى الأنس بزوجه وولديه مالا يجد جزءاً منه فى مكان آخر . لقد كان من طراز غير طراز هؤلاء الكثرة من الرجال الذين لا يعرفون البيت إلا كما يعرفون الفندق أو المطعم ، ولا يفهمون من واجبات الأسرة إلا كما يفهم المدين ألح عليه دائنه ، ولا من حقوق الزوجة إلا ما تلهمه الغريزة ، ولا من بر الوالد أكثر مما يفهم مدير ملجأ اليتامى . . !

ولم يكن يعجب لشىء أو يرثى لأحد عجبه ورثاءه لهؤلاء الذين لا ينفكون يصرحون بالشكوى والألم من متاعب الزوجية وقيود الزواج ؛ بل لقد كان يسىء الظن بهؤلاء الشاكين ويرميهم بالحمق وسوء التدبير فى سياسة بيوتهم أكثر مما يرثى لهم ويعجب .

ولكن هذه السعادة التى كانت تشرق عليه بالبشر والايناس ، وتعمر صدره بالبهجة وحب الحياة — لم تلبث أن زالت ؛ وتبدل البيت من أنسه وحشة ، وتحولت ضحكات المرح والمسرة فيه إلى همسات حزينة باكية ، وخيم الظلام الموحش الرهيب . . لقد ماتت زوجه . . !

من لهذين الصغيرين يرعاهما ببره ، ويسبغ عليهما من عطفه وحنانه ما يعوض عليهما بعض ما فقداه من بر الأم وحنانها ؛ من لهذه الصغيرة (كريمة) يرتب شعرها ويغنى لها فى الصباح تلك الأغنية الجميلة التى كانت تدللها بها أمها وهى توقظها فى رفق لتذهب مبكرة الى المدرسة الالزامية القريبة . ومن للصغير (صلاح) وما تزال الأرض تجاذبه فما يمشى خطوات إلا معتمداً على الحائط ، ثم يتم سيره حبوا على أربع ؛ من ذا يقطف من ثغره الزهرة الناضرة حين يبتسم ، ويطبع على خده القبلة الناعمة حين يبكى ؛ بل من ذا يجيبه حين يحرك شفتيه بالكلمة العزيزة التى لا يعرف غيرها : « أمى ! » وقد ماتت أمه . ومن ذا يعوض على نجيب زوجه التى فقد بفقدها نضارة عيشه ، وبهجة حياته ، وأنس أليفه ، وأم ولديه . . ؟ إنه ما يزال يذكر ذلك الحديث القصير بينه وبين كريمته غداة حملوا أمها الى حيث لا تراها ، فتسأله :

— أبى ، أين أمى ؟

— أمك عند أبيها يا كريمة .

— لقد كنت أظنها عند الطبيب ، وأين أبوها ؟ إنى لا أعرف بيته

— أبوها هناك . فى مكان بعيد لا تعرفينه ولا أريد أن تعرفيه .

— ولماذا لم تأخذنى معها ، لقد غابت كثيراً فمتى تعود ؟ !

وأخفى الرجل دمعة تنحدر على خده ، وأطبق فمه أن تفلت منه زفرة محبوسة ؛ وقام يستحث الخادم على إعداد الطعام . . لقد ترك هذا الحديث فى نفس نجيب أثراً عميقاً كان عسيراً عليه أن ينساه ، وكان أليماً أن يذكره ؛ وكلما أحس أن ابنته توشك أن تعود الى مثله أسرع يقص عليها حكاية مسلية ، أو يروى نادرة مضحكة ليصرفها عن الحديث . .

وأنس الصغيران الى أبيهما ، ومرت يد الزمن رفيقة على رأسيهما فمحت منهما تلك الذكريات عن صاحبة الوجه الجميل التى كانا يدعوانها أمهما الى قريب . ولكن هذا الزمن لم يستطع بأيامه ولياليه أن يمحو هذه الذكريات وذكريات أخرى عزيزة كان يحتفظ بها نجيب أثراً من ماضيه السعيد .

وكلما مرت الأيام أحس نجيب بالوحشة والفراغ من حوله وعاد يستذكر الماضى بما فيه ، ويقلب حوله عيناً حزينة لا تقع على أثر من آثار ذلك الا عادت ملأى بالدموع . ومضت خمس سنين وهو يعيش فى هذا البيت عزباً يرعى ولديه ، ويقوم بأمره

قيام الأم والأب ، تعاونه خادم صغيرة على إعداد الطعام وتنظيف البيت وقضاء حاجات الصغيرين .

* * *

وأتمت كريمة دراستها الأولية والتحقت بمدرسة ابتدائية قريبة من الحي ، وأخوها يتأهب لأن يفارق معلم (الكُتّاب) وعصاه إلى المدرسة ، ونجيب مازال على عهده يشعر بالضيق من وحدته ، ويتمنى لو يستطيع أن يظفر بزوج تعمر هذه الدار الموحشة ، وتعيد إليها بهجة فقدتها منذ عهد طويل ، بل تشرق بابتسامتها فى وجهه العابث ، وتمهد بيدها الناعمة فراشه الخشن ، ولكنه . . . ولكنه يحب ولديه ويريد أن يؤثرهما بهذا الحب ، وهو يرى أنه ليس فى الوجود إلا أم واحدة لكل مخلوق وأب واحد وقد ماتت أمهما ! وإنه ليخشى أن يفقدا فى سبيل البحث لهما عن أم ثانية — أباهما الواحد ؛ يخشى أن تستأثر به زوجه فلا يكون لهما أب ولا أم !

وتعرّف إلى صديق جديد ، هو زميله فى الديوان ، وتوثقت عُرى الود بينهما فاطمأن كل منهما إلى صاحبه ، وتعاهدا على الوفاء فكانا روحاً فى جسدين ، واتحدا عاطفة وإحساساً فصارا — كالشخص وخياله — يبتسمان ويقطبان فى مرآة .

وعرف (إبراهيم) من حال صاحبه مانعرف فنصح له أن يتزوج ، وعرض عليه أخته زوجاً له وأمّاً لولديه . . . ومضى شهران زُفّت بعدهما (زينب) إلى نجيب ، فرأى من أدبها وإشراق طلعتها وحسن معاملتها لولديه — ما أعاد إليه بهجة الشباب . وكأنما تناول القدر مقصاً قطع به ذلك الجزء الباقى من صور الماضى القريب ليصل عهدين كلاهما له من السرور رونق ورواء .

وعاد إليه أنسه ، واطمأنت نفسه ، واسترْوح نسيم السعادة وتفيأ ظل الاستقرار ، ومضت أشهر .

وقالت له زوجه : « البيت مدرسة الفتاة ، فهلا احتجزنا كريمة عن مدرستها تعرف من شئون البيت ما عرفت من فنون العلم ، وتجيد فى الطهى ورفو الثياب ما تجيد من القراءة ومداعبة القلم ؟

وتريث نجيب قليلاً ثم سمع لكلام زوجه ؛ وبقيت كريمة من اليوم التالى فى البيت تستمع إلى دروس جديدة من فن تدبير المنزل ، وعرفت كيف تدير الملعقة فى القدر ، وكيف تقشر البصل وكيف تغسل الأطباق وترتبها على المائدة فى نظام جميل . وكانت تفرح حين تكلفها (أمها) إعداد شىء ، أو تطلب إليها مرافقة الخادم إلى السوق لقضاء حاجة ، ولم يكن يسوءها شىء أكثر مما تسوءها سرعة اتساخ ملابسها الزاهية ؛ لأنها كانت تغسلها بنفسها . . وخرجت الخادم مرة فلم تعد ؛ لأن زينب طردتها . وقالت لزوجها :

— إن هؤلاء الخادمات لا يُحْسِنَّ القيام بشىء غير طلب الأجر ، وأكثرهن لا يعرف الأمانة ولا يشكر النعمة ؛ فلا تتعجل فى اختيار أخرى قد تكون شراً من سابقتها ، وسأبحث على مهل عن خادم أمينة لا تضايقنا ما كانت تضايقنا تلك الفتاة الملعونة . . . وأُسند عمل الخادم مؤقتاً الى كريمة ، ولكن هذا التوقيت لم يكن الى نهاية . . . ! فلم تعد تلك الفتاة الناضرة التى كانت ، وانطفأ بريق عينيها ، وذبل خداها ، وعلت وجهها غبرة من الحزن كانت تواريه عن أبيها . . . وأخذت تعود الى

رأسها الصغير ذكريات بعيدة مشرقة ، تبدو خلف ضباب البعد فى فتنة الخيال — ذكريات عن أم أخرى رفيقة كانت دائماً تبتسم فى وجهها ، وكثيراً ما كانت تحتضنها الى صدرها وتقبلها وتعنى بنظافتها وراحتها ، فتصنع لهـا اللُّعب وتشاركها اللَّعب بها ؛ وكانت إذا جاء المساء تروح تحدثها حديثاً عذباً ، وتقص عليها حكايات لاتزال تذكر بعضها ، فاذا جاء وقت النوم احتوتها بين ذراعيها ، ثم لاتستيقظ فى الصباح إلا على نغمات من صوتها الندىّ الرقيق . أين ذهبت تلك الأم فلم تعُد ، ومن هذه الأخرى ؟ لقد كانت أمها الأولى أرحب صدراً وأوسع عطفاً وأكثر حناناً . ! وابتدأت الفتاة تتبرم بما تؤديه من عمل ، وابتدأت زينب تشكوها الى أبيها . وأولَ مرة سمعتها كريمة من بعيد تحدّث أباها عنها ذهبت الى غرفتها وجلست تبكى ، فلم يسأل عنها أحد .

ويوما عاد صلاح من المدرسة فى الصباح ، فقد طرده الضابط لقذارته ، وانهالت عليه (أمه) توبخه وتشتمه ، وتركته منزوياً فى جانب من الردهة يبكى حتى عاد أبوه فى الظهر . ورفعت اليه الشكوى من (ولده) وتجاهلت أشياء واختلقت أشياء . وغضب الوالد ، وهم بالولد يخيفه برفع يده ، ووقفت كريمة فى الطريق :

« أبى ، ماهذا ؟ إن أخى لم يفعل ذنباً ، أمى هى التى تهمله ! »

وسقطت يد الرجل بجانبه ، لقــد رأى كريمة فى صورة أخرى ، لكأنه لم يسمع صوتها منذ زمن طويل . هذا الصوت الذى تحدثه به لَشدّ ماأثار فى نفسه من ألم وأعاد الى رأسه من ذكريات . ووازن بين صورتى ابنته أمس واليوم ؛ صورتها أمس فى طفولتها الجميلة وهى جالسة فى حجره تعبث بشاربه وتربت بيدها على خده . لقد كانت مثل زهرة تفتحت فى الربيع تتألق فى حسن وتفوح بعطر — وصورتها اليوم ! ماذا تلبس ؟ إنها ثياب الخادم المطرودة . . . وحوّل وجهــه الى ناحية أخرى فأبصر ولده متجمعاً من خوف فى زاوية المكان : صلاح . ووقف الولد يرتعد ، وجذبه أبوه برفق ، وطأطأ رأسه فى ذلة ، وانحدرت من عينيه دمعة : ولدى . وتهدج صوته فأمسك عن الكلام ؛ وأحست زينب عاصفة توشك أن تنقضّ فانسحبت فى هدوء

لم يتحدث نجيب مع زوجه فى شأن العناية بولديه ، فقد عرف معنى انسحابها ، وأدرك أنها فهمت ما همّ أن يفعله . . . وعادت الحياة فى البيت مطمئنة هادئة ، فقد غيرت زينب سياستها فى معاملة الولدين ، ونسى نجيب ما كان ، أو كاد .

وليلةً جلسوا على المائدة للعشاء ، ومد صلاح يده يتناول قطعة من الفاكهة ، فانجـذب اليه غطاء المائدة فتلف نظامها وسقط بعض الأطباق على ملابسه وملابس أخته فى جواره ، وغضب أبوه ونظر اليه نظرة ، وتوقفت زينب عن الأكل لحظة تقلب بصره فى نظرات ذات معنى بين الولد وأبيه ، وتألم الولد فقام عن المائدة يدعى الشبع ، ثم نهضوا جميعاً . ولم يطل بهم السهر تلك الليلة فصحب الرجل زوجه الى النوم ، وترك الولدين يهيئان فراش نومهما فى غرفتهما . ولما سكن الصوت قالت زينب :

— نجيب ! أرأيت مافعل صلاح ؟ لقد فقدت شهوتى للطعام حين رأيتك متألما لِماَ فعل ، ألا ترى من الخير أن يأكلا وحدهما ؟

— زينب ! اسكتى . ونهض الرجل الى الفراش ولكن لم يغمض له جفن ، لقد تعاورته أفكار مظلمة ، وأخـذ يردد النظر بين حاضره وماضيه ، لقد كان للأسرة معنى يحس وحدته فى قلبه فأصبح لها فى مرأى عينيه معنيان ؛ فى زوجه وولديه . ورجع أدراج الزمن يلاحق ذكريات عزيزة كاد يطمسها البعد الطويل ؛ ثم أخذته إغفاءة الفجر ، وخرجت له امرأته الأولى من فكره المضطرب وقلبه المتألم — طيفاً يعاتبه ؛ وتخلت عنه حجة المعتذر ؛ وأغضى حياءً من عنف تأنيب تينـك العينين ؛ ورأى ولديه يفران فى رعب وفزع الى حيث يلتمسان الأمان فى صدر أمهما . وابتسم

الطيف فى رثاء وألم . . . واستيقظ ، فارتدى ملابسه على عجل وخرج مبكراً الى الديوان .

***

ووقف ابرهيم افندى على سر صاحبه ، وآلمه من أخته أن تكون على ما وصف زوجها قسوة وغلظة ، ولم يخش على عشها أن ينهدم أكثر مما يخشى على ما بينه وبين صديقه من ود أن تنفصم عروته ، وينحلّ وثاقه ، ويعبث فى عقدة الاخلاص منه إصبعُ الشيطان أو إصبع امرأة . . ودبرا أمراً وافترقا على ميعاد

فى عصر ذلك اليوم دعا نجيب زوجه الى نزهة ، فركبا سيارة الى بيت أخيها حيث استودعها نجيب الى أن يعود . وأبدى إبراهيم لمقدمها شعور مرتاح وهو يخفى الغيظ فى صدره ، وتعلق بها أولاد أخيها يتجاذبون ثوبها فى سرور ظاهر ، واستقبلتها زوجه بقبلة وداد وعناق مشتاق ؛ واستدارت بهم حلقة يتناولون من كل حديث طرفا ، ويتبادلون شتى ذكريات أمس وأنباء اليوم وآمال الغد :

منذ أشهر لم تطأ زينب عتبة هذه الدار ؛ منذ فارقتها الى بيت زوجها تعترك فى رأسها أحلام ، وتصطرع فى نفسها عواطف ، وتعبث بطمأنينتها رهبة ، وتتحرك فى دمها غريزة امرأة ، ترى ماذا تحقق من أحلامها وما أخفق وماذا تسعى إليه بعد ، وأى حاليها كانت خيراً : حالها الآن وقد أصبحت ربة بيت وصاحبة أمر وسلطان ، أم حالها أمس فى تلك الغرفة من بيت أخيها ريانة شبعانة كاسية ، ثم حسبها مما وراء ذلك من سعادة العيش أحلام لا تولد إلا فى الظلام فلا تعيش تحت الشمس ؟

وانتهت تأملاتها وقد زحف الظلام ولم يعد نجيب ؛ ترى أى جليل من الأمر تلكأ به وهو الوفى إذا وعد ! وهفَت نفسها اليه ، وهتف باسمه الشوق ، وتحدثت اليه المنى : متى يعود . ؟ ومد الليل رواقه ولم يعد ، وراحت تتناهبها الأفكار ، وتنوشها الهواجس ، وتعبث بلبها مختلف الخواطر ، وذكرت موقفها من ولديه أمس وموقفه ، وخشيت أن يكون به ألم من بعض مافعلت يريد أن يعاقبها عليه ...

وكأن لم يكن لها عهد بالأكل على مائدة أخيها فجلست تقلب بصرها فى أنواع الطعام وفى وجوه الآكلين ، لا تكاد تمدّ يدها أو تحرك فكيها . وقاموا عن المائدة ، ثم أوشك الليل أن ينتصف ولما يعد نجيب . . وغلبها الخوف والألم ، وهمت أن تكاشف أخاها بما فى نفسها فلم تفعل ، وطوت صدرها على هم متكبر ! وقام أخوها يتثاءب فدعاها الى النوم هناك . . . فى الغرفة التى ودعتها منذ أشهر يوم صَحَتْ من أحلامها تستقبل الحياة التى طالما تمثلتها وتخيلت أيامها ولياليها فى كنف الزوج العزيز . . وسلخت ليلتها لم تنم على جنب واحد ، وأقبل الصباح أقبح من ليل داج مخيف . ومضى يوم ويوم وأيام وهى تصبح وتمسى على حال واحدة ، وأحست أنها ضيف مملول . وشعرت بالوحشة تكتنفها ، واجتمعت عليها الأفكار السود ، ولم تستبن فى ظلام يومها ما يضمره لها الغد ، وأيقنت بما هناك . . . أترى زوجها يقدم على ذلك وهو الذى كانت تعرف من حبه إياها أنه يشق عليه أن يفارقها لحظة ، فهل يطيق أن يفارقها الى الأبد ؟ ولكنها لم تحرص على هذا الحب ، لقد كانت تطمع أن يكون لها وحدها قلبه ، وأن تستأثر بحبه من دون ولديه ، ففقدت كل شىء ولم تظفر بشىء ! !

وقال لها أخوها وقد جلسوا للطعام :

— لماذا لا تأكلين يازينب ؟ لعلك تخجلين أن تجلسى معنا على المائدة ، فلا حرج أن تأكلى وحدك إن كان يحلو لك ذلك ؛ وتستطيعين أن تطهى طعامك بيدك إذا أحببت ألا تأكلى من طعامنا . ونظر الى زوجه ونظرت اليه . وسكتت زينب فلم تجب ، ولم تأكل أيضاً ، فقد ازدحمت فى عينيها الدموع . وقامت عن المائدة فلم يلحّ عليها أن تجلس كما يلحّ على زوجه وأولاده حين يفرغون قبله من الطعام . أتراها ثقلت عليهم الى حدّ أن يكرهوا أن تأكل معهم من طعام واحد ؟ لقد هانت عليهم من قبل ، حين أذنوا للخادم أن تسافر لزيارة أمها ، وتركوها وحدها تؤدى عملها ، فلم يساعدها أحد أو يشكر لها يداً ، أى هوان !

وخلَتْ الى نفسها تبكى وتدفن الزفرات فى صدرها ، ثم تحصى الزمن وتقدر حساب الغد . لقد طال بها الانتظار ونجيب لما يعد . . ومرت بها من الماضى صورة فذكرت . . لكمْ كانت قاسية جبارة فى معاملة كريمة وصلاح ، ما أقبح الجريمة وما أعدل الجزاء ! وانحدرت على خدها عبرة الندم . لقد كانت عمياء فأبصرت ، واشتملها احساس عميق بالرثاء والعطف ؛ كيف لم تدرك من قبل سوء ما كانت تصنع ؟ إنه ذنب الصغيرين ، ستكفّر عنه حين تعود ، ولكن ... هل تعود ؟

وتركت كبرياءها فى الغرفة وخرجت تحدث أخاها :

— إبرهيم ، ألم يقابلك نجيب ؟

— بلى .

— إنه لم يحضر !

— أعرف ذلك !

— وهل تعرف السبب ؟

— السبب ؟ !

وتركها مطأطئة الرأس تبكى فى حسرة وندم ومذلة ، وراح يخفى علائم الظفر تبـدو فى أساريره ؛ لقد أفلحت الخطة ونجع العلاج .

وحين عاد فى المساء كانت زينب لاتزال تبكى . لقد غلَتْ القدر وتوشك أن تنفجر ؛ واقترب منها فوضع يده على كتفها ؛ ورفعت إليه عينين مخضلّتين بالدموع ، واندفع فى غير رفق يصب عليها جام غضبه ، وبوجه إليها قارص اللوم وعنيف العتاب ؛ وراحت تعتذر فى كبرياء جريح ، وراح يحمّلها تبعة ما يخشاه ؛ يخشى أن يفقد صديقه أكثر مما يخشى أن تفقد زوجها . . . ثم ترك القدر فى غليان .

والتقى الصديقان ، وقص إبرهيم على صديقه ماسمع وما رأى . . . وجلست زينب تصارع اليأس بالايمان ، وتغالب الحزن بالأمل . ومر يومان ولم يعد إبراهيم إلى التحدث معها فى شأن زوجها ، ولم يعد نجيب . وغلبها الهم واليأس ، واستسلمت للمقادير مؤمنة بأنهـا إنما تلقى جزاءها العادل . وجاء يوم الجمعة ثالثاً وعاد ابرهيم من الصلاة ومعه ضيف .

لقد عاد نجيب بعد طول الغياب !

وجلسوا حول المائدة يتداعَوْن إلى شهىّ الطعام ، ويتبادلون بين اللقيمات كلمات قصيرة عذبة . ثم انفضوا عن المائدة يسمرون ، إلا نجيباً وزينب ؛ لقد ظلا صامتين ، ولـكن ضمائرهما كانت تتناجى فى حديث خافت ، وخواطرهما تفترق وتتلاقى .

***

وفى اليوم التالى حين عادت زينب إلى عشها المهجور كانت أسعدَ منها يوم قدمت إلى هذا البيت أول مرة عروساً متوّجة بالزهر مودّعة بالزغاريد . ورأت كريمة (أمها) فأسرعت تسلم عليها فى لهفة وشوق ، وعلى فمها ابتسامة ، وفى نظراتها بشر وفرح وترحيب . وهرول إليها صلاح يتعلق بذراعها ويجذبها إلى الخلف كأنما يخشى أن تهجره ثانية إلى غير لقاء .

لقد استوحش الطفلان لغيبة زينب ، فنسيا كل ما كان من قسوتها ، لأن قلوب الصغار طاهرة بريئة ، لاتمسك العداوة ، ولا تذكر السيئة ، ودنياها يومها المتجدد . وكأنما أحس الولدان أن المصيبة إن كانت فى فقد الأم ، فتمامها أن يفقدا شبه الأم !

ورأت زينب فى ترحيب الصغيرين معنى لم تحسّه من قبل ، وتحركت فيها الأمومة ، وتزاحمت فى رأسها إحساسات شتى : من النـدم ، ومن الحب ، ومن التأثر بهذا الوفاء . وطفرت من عينيها قطرتان من الدمع تلهبان خديها بأقسى مما يلذع صدرها الندم . واقتربت منها كريمة وعلى شفتيها تساؤل مشفق :

— أمى ، أنت تبكين ؟ لا يا أمى ، لا تبكى لا تبكى . ودفنت رأسها فى صدر زينب مختنقة بالعبرات . ووقف صلاح على مقربة وقد وضع إصبعه على فيـه فى حيرة ودهش مما يرى . وتحرك فى قلب زينب جنين الحب ، فمسحت بيدها فى رفق وحنان على رأس (ابنتها) وتدانى فمٌ من وجنتين . وأقسمت ، وأشهدت ربها ، لتكونَنّ من اليوم لهذه الطفولة الوفية — أمها الثانية !

محمد سعيد العريان